ناظم علاوي

لن تهدأ

قصص

للطباعة
والنشر والتوزيع

لن تهدأ

عنـوان الكتـاب: لن تهدأ
اســم المـؤلـف: ناظم علاوي
نــوع الكتــاب: قصة
عدد الصفحات: 95
حجم الكتــاب: 14.8 × 21 سم
البـــــــــلد: العراق
الطـبـــــعــة: الثانية

حقوق الطبع محفوظة لدار ماشكي
Copyright Reserved for ©MASHKI

International Standard Book Number (I.S.B.N)
978-9922-9650-2-4

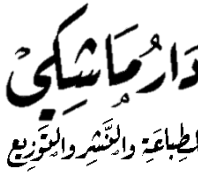

العراق – الموصل – المجموعة الثقافية
هاتف: 9647701664335+
البريدالالكتروني: mashky2019@gmail.com
ص.ب: 11019

لا يجوز نشر اي جزء من هذا الكتاب او تخزين مادته بطريقة الاسترجاع او نقله باي طريقة كانت او ترجمته الا بموافقة خطية من صاحب الحقوق.

الآراء الواردة في هذا الكتاب تخص المؤلف فقط والدار ليست مسؤولة عما ورد فيه

تصميم الغلاف: بيات مرعي
التنـــضيـــد: علي عبدالمنعم

ناظم علاوي

لـــن تهدأ

قصص

الطبعة الثانية

2021

الإهداء

إليك

وأنت

تجعلينني

أكثر أناقة ...

وإدهاشا

المؤلف

الوشم❖

افترش ظله المنعكس فوق رصيف المقهى الذي لم يكن واسعاً كثيراً، مثل رغبة جامحة بالاكتشاف نضجَت في زمن تَسرَّب من بين أصابعه قبل أوانه، بدا للجالسين ظله الداخل قبله للمقهى مثل شبح لم تتضح معالمه بعد، وقف عند بابها الفضي يستوضح لبَنات أفكاره ما الذي غيرته السنوات العشر؟ كانت ملامح وجهه تشي بأحزان لم تَمحُها عودتهُ المفاجئة من الأسر.

إنَّه زمن طويل ارتحل خارجاً عن جسده من دون رجعة بعد أن حفر على جبهته تجاعيد خطوط تنبئه عن عمره الذي غادره مثل رصاصة طائشة انفلتت في الأثير في غير أوانها، سقطت نظراته القاسية مثل عيني صقر تحاول

أن تعثر على جواب لأحجية، علّها تذكره بالمُتَسور في ذاكرته من صور الأهل، التي طالما كان يتخيلها فوق جدران زنزانته، والتي حفظ عدد ثقوبها وشروخها.

(الاوجاغ) مكانه منذ أن بنى المقهى العم أحمد قبل أكثر من عشر سنوات يمين الداخل، وقد تحدب بناؤه المبني بالآجر المرصع بمربعات منتظمة لقطع الفرفوري – وكأنه قد هرم– ينوءُ بثقل المحمل الحديدي الصدئ الزوايا، والمطلي بلون أبيض يستقر عليه بشيء من عدم الاتزان (السماور) الذي يغلى الماء فيه، ذو اللون الفضي، كان مرصعا بنقش لرأس صقر، تَذكر أول طبخة شاي أعدها العم أحمد ووزعها ابتهاجا بعد شرائه، لم تزل (قواري الفرفوري) المُلبّسة بالنحاس مثل شبكة أطبقت على فريستها تستقر باطمئنان قربه فوق هذه الصفيحة المتآكله أجزاؤها من شدة اللهب المنبعث تحتها، (واستكانات) الشاي النظيفة المقلوبة والمنتظمة داخل الصينية النحاسية، وهي هدية والده للعم أحمد عربون صداقة عندما افتتح المقهى، بحث عن حرف يعرفه في زواياها كان قد نقشهُ عليها والده، تَنفسَ عبق سنينه الموءودة والماضية في زحمة الأثير المنفلت عند اضطرابات عينيه الدامعتين وفكره المشتت، وهو يبصر الحرف في مكانه يقاوم السنين العجاف، حدّق ملياً ليرى في

يده اليمنى عند أعلى إبهامه وشما للحرف نفسه، رفع رأسه ليترك حنين نظراته يتجول داخل المقهى.

الكراسي الخشبية قد تضاءل عددها واستبدلت بحجر الحلان الملتصق مع جدران المقهى، لم تزل المناضد المدورة الحديدية ذات القوائم الثلاث محلها، وقد توزعت بطريقة غير منتظمة أمام هذا البناء وكأنها شرخ قديم لا يزول أبداً.!

على يسار الداخل كرسي العم أحمد مكسورة الذراع، لم تتزحزح من مكانها، وكأنها أصبحت جزءاً نابتاً في الأرض بعد أن غاصت قوائمها فيها، الآن فقط استنشق هواء مدينته، ورائحتها التي لم تفارقه، أو تغيرها عفونة ورطوبة زنزانة الأسر، أو تمحها ظلمة ليالي الفراق والغربة والبرد الموجع.

يخطو بقدمه اليمنى داخلا المقهى، فوضحت للجالسين معالمه، تاركاً أشعة الشمس تجتاح وجوههم لتنتشر مثل جيوش في كل مكان، لم ير العم أحمد، الشاب الواقف قرب (الاوجاغ) رحب به وهو يحاول أن يستفهم وجوده الغريب والطارئ على محلتهم، إنه مقهى – محلة الغزلاني– يرتادها رجالاتها فقط، ولم تعتد أن تستقبل زبائن غرباء.

(أهلا وسهلاً) هكذا انبثقت من شفتي الشاب بشيء من الاستغراب! وهو يحدجه بنظرة مستغربة.!

دخل –هو- إلى المقهى يسابق عطشه المتأزم لفرحة قد يعثر عليها في أية لحظة، استقر أخيرا مثل كرة ظلت تدور على كرسي خشبي في نهاية المقهى ومواجها لبابها، معتقدا أنه يستطيع أن يرى كل من كان جالسا فيها أو أي داخل إليها، وأن بإمكانه أن يستوضح معالم المقهى من دون أن يثير فضول أو ريبة أحد، لم يعرفه أحد، أسند ظهره مثلما كان يفعل والده، فيما راحت عيناه تأكلان جدران المقهى المحفوفة بصورة لعضلات حارس محمد وهو يداعب الكرة، بجوارها علقت صورة ذهب بريقها، بدت فيها كراسٍ عديدة مزدحمة بوجوه قديمة يتقدمهم المطرب محمد حسين مرعي الذي لقبه الموصليون (بلبل الحدباء) وصورة أخرى لحشد منظم لفريق الأجيال بكرة القدم أرخت بتموز 1979م بينهم خالد القزم بشعره الأجعد وطارق زورو وأحمد قادرية وأحمد الاشمطي وثيلام علاوي وصور صغيرة الحجم ومتداخلة للاعبين موصليين، وصور أخرى بالأسود والأبيض للفحام والقندرجي؛ لينتشله صوت عامل المقهى – الشاب- من جولته المعرفية واضعًا بيده اليمنى قدح الشاي أمامه؛ ليغرز سهمًا في عينيه وهو يبصر حرف (ع) الموشوم عليه بخط الرقعة في أعلى كفّه قرب إبهامه، وكأن مطرقة

هوت على رأسه مستفهمة حقيقة ما رآه، ليلقى بحمل أفكاره إلى يده اليمنى، عندها أخذته ذاكرته وهي تقلب مشاهد موغلة في القدم، وتعيد ترتيب تلك الصور التي انفجرت من رحم حنينه المجهض، عندما كان يأخذه والده مع أشقائه إلى السيد المِعماري، هذا الرجل المبارك والذي يسكن في بيت من طين في منطقة المحطة قرب باب الجديد، نحيل الجسم ذو لحية كثة بيضاء، طويل القامة، عيناه غائرتان، ووجه مثلث يوحي لك الرأس أنه جمجمة اكتست بجلد وشعر ولحية وحواجب فيما تتدلى من جانبيه أربع ضفائر رفيعة وطويلة، تنتهي بشريط أخضر يزعم أنها من بردة مباركة للسيد عبد القادر الكيلاني -قدس الله سره- وتوارثها مريدوه حتى وصلت شيخنا، وهي تقية تعطيه الحق في الرقية والكرامات التي تمنح للأولياء، ويربط رأسه بقطعة منها وأراه دائما يرتدي "دشداشة" بيضاء، يلف خصره النحيل بشريط قماش أبيض مطرز بخطوط سوداء، كم كنت أخاف رهبة هذا المكان، وأتحاشى السيد بالاختباء والاحتماء وراء أبي ممسكا ببنطاله وهو ينهرني: كفاك صبيانية؛ إن السيد رجل مبارك يا بني، وسأطلب منه أن يُرقيك علّ الله يهديك، وتتغشاك بركة الرحمن.

في ما كانت عيناي تتجولان برعب وخوف في جدران غرفته التي تزدان بسيوف وخناجر رفيعة وعريضة النصل

وسهام ذات رأس مدبب أو رأسين أو ثلاثة رؤوس أو أربعة، حادة ونحيفة، معدة لتخترق اللحم، والتي يستخدمها السيد في (مولدية الذكر) التي يقيمها كل مساء خميس؛ ليظهر للناس كرامة شيوخه وهو يضرب بطنه بإحد هذه السيوف ويخرجه من ظهره، أو يغرس أحد هذه الدبابيس التي تتراوح أطوالها بين عشرين إلى ثلاثين سنتمترا في خده ولسانه من دون أن تخرج قطرة دم واحدة، وهو يتباهى أمام مريديه وطلبته والعوام من الناس؛ ليُدلل على صدق إيمانه، وقوة ومصداقية وكرامة أسياده وشيوخه، وكنا نذهب كل خميس برفقة الآباء أو الأمهات للفرجة، وكم كنت أنبهر وأتساءل كيف ولماذا لا يخرج دم؟ بينما نحن ما أن تحتك أيدينا بالحائط أو يلامسها أي جسم خشن حتى تخرج الدماء سريعة، وطالما كانت أمي تقول: إنها بركة السيد الكيلاني (قدس الله سره) وتتهكم على جيلنا، وتقول: أنتم جيل ضايع وتايه.

دائما كانت تفوح من غرفته رائحة البخور والمسك والعنبر، ذهبت مع والدي أكثر من مرة، لم أره يتحدث، ولم أسمع له صوتًا، فكان والدي يجلسني بحجره ويبادر السيد بسحب يدنا ونحن نبكي من الخوف والألم الذي يحدثه الغرز خلال عملية وشم الحرف (ع) على أيدينا؛ أذكر مرة ذهبت مع والدي ليَشِم الحرف على يد أخي، تجرأت وسألت

السيد: "عمو ليش يخرج من ايدينا دم عندما تغرز بالإبر وأنت تضرب نفسك بالسيف والخنجر ما يطلع دم؟"

رفع رأسه ورمقني بنظرة أحسست بها سهما اخترقني من عيني إلى قلبي، بعدها بقيت ملازما الفراش والحمى لم تفارقني ثلاثة أيام، إلا بعد أن ذهبت أمي إليه واستسمحته أن يعفو عني، وقالت: إنه طفل صغير لا يفقه ما يقول، وأهدته ديكا ودجاجة، ومنذ ذلك الوقت لم أره أو أذهب إليه... وكنا نسمع أبي يقول: أبنائي، إنه تقليد توارثناه، أن يَشِمَ الأب أول حرف من اسمه على أكف أبنائه اليمنى فوق الإبهام.

تخمرت وجنتاه بفيض روحه، دموعه المشتاقة لهم؛ أهله، عندما حث خطاه تجاه منزله ما أن وصل إلى محلته، أول شيء فعله الوقوف أمام الباب الخشبي العتيق، قَرَّبَ أنفه وأخذَ يشمه فقفزت دمعة بللت عتبة الدار التي طالما كان يجلس عندها ليبيع "المحلبية" التي تعدّها أمه "بصينية الفافون" وتَرصّها وتقطّعها على شكل هياكل مكعبة منتظمة وبألوان مختلفة بيضاء وصفراء وحمراء، وفي بعض الأحيان في ما إذا كانت أمور أمي المالية متيسرة تشتري السمسم، أو حبة البركة، فتنثرها فوق المحلبية لتكسبها طعما مميزا، وكم كان يعاند أمه ويهرب من هذه المسؤولية وهذا الواجب الثقيل؛ ليركض مع أصدقائه إلى رأس المحلة؛ ليلعبوا بكرة

مصنوعة من النايلون، هي مُلكُ (جَمال) وحيد أبويه والمدلل من رجال ونساء المحلة، وهو الوحيد الذي تستطيع أن تميزه عنا جميعا من نظافة وأناقة هندامه، ويكاد يكون الوحيد من بيننا الذي يرتدي حذاء مصنوعا من الجلد، فأحذيتنا جميعا مصنوعة من لاستيك (الجوب ليس) وبحكم امتلاكه للكرة فإنها تعطيه الحق في اختيار اللاعبين الجيدين، ومن يلعب ممن لا يلعب، فكان الجميع يتملق له، أو يحاول عدم إغضابه، والكل يتسارع في إرضائه، وكنت خارج تلك الحسابات؛ بحكم ملاصقة دارنا لدارهم، يا الله ما أبسط تلك الأيام، ويا لعفوية وبراءة الصبيان.

طرق الباب، خرجت امراءة كبيرة في السن، لم يعرفها تفاجأ بها! كان يتوقع أن يخرج عليه وجه يألفه ويعرفه، خاب وماتت آماله، قفل راجعا يسحل قدميه بخيبة مريرة، وكلمات العجوز تدك أذنيه وتلعب برأسه: إن العائلة التي كانت تسكن هنا رحلت، وإنها اشترت البيت من امرأة أرملة، لم تذكر السيدة العجوز صاحبة الدار أكثر من هذا، فاحتار بين الأمس واليوم، سنوات مضت اختصرت أمنيةَ فؤاده لرؤيتهم، عاد مرة أخرى إلى المقهى، لتسبح عيناه في ألم مرّ، ولتمسح منها تلك الغيمات من الشوق لرؤيا أهله، وهو يتطلع إلى الشاب – أخيه- ويرجو روحه أن يعرفه، ابتعد بعينيه عن جهة أخيه إلى الحائط المواجه له، علَّه يداري

انثيالات حزنه وفرحه، وارتجاف أوداج جسده التي أيقظتها رؤيا الوشم – في يد الشاب- عامل المقهى.

تَسمَّرت عيناه ناحية الحائط فلمعت تلك اللوحة كنجمة معلقة بين صور الرياضيين والفنانين بإطارها الخشبي القديم بمسمار وحيد تآكل رأسه وضاع في خيوطها الملتفة حوله، لتوقظ طيات ذاكرته وهي تشيع حواراً دافئاً مع أبواب أمانيه الموصدة، كان الرسم بسيطاً بقلم رصاص، رسم بيد لم تكن محترفة، بل تبدو متعجلة! فبدت له اللوحة كعالمين متناقضين ومتآلفين: في جزئها الأعلى رسم لامرأة تعدو مسرعة خائفة، تعابير وجهها مرعوبة، شعثاء، تمزق ثوبها عند كتفها الأيمن، أخاديد وجهها قلقة خائفة، احتوت رعب وأحزان عالم كامل، وهي تحمل بين يديها طفلة تجمدت معالم وجهها، وسكنت سحنتها ببرود هزيل، ضفائرها غير المكتملة مشروع أجل لحلم نحو بيت هانئ لم يحن أوانه، وربما لن يأتي أبدا؛ ذبلت عيناها مثل شمعه في خضم بحر تتلاطم أمواجه بجنون مقيت ومظلم، ويدها اليمنى تتدلى إلى الأسفل؛ علّها تحرك رياح قلوب استحوذت على كل الابتسامات ببخل بغيض، وراء المرأة بالضبط في أعلى الزاوية اليمنى من اللوحة تخطيط لكف مشوهة، ومعقوفة المخالب! تحاول الانقضاض على لحائها الغض، لتستبيح عفتها المتوسدة طبقات عالية من الامتناع والحياء،

بينما يبدوا شعرها وكأنه يتراقص مع تيارات الهواء فزعاً أثناء عدوها، في أسفل اللوحة صبي لم يتجاوز السادسة من عمره، تقرفص على عمره الذي يبدو سائلا كجريان الماء في سواقي محلته التي تشظت واندثرت؛ ثيابه خفيفة ممزقة يحاول الاحتماء بجوار كتلة التراب المرصوصة على الرصيف قرب الإشارات الضوئية، وقد ضم بين صدره وركبتيه علب سكائر، انزوى بلا حراك أو نفس، وروح سابقته إلى معارج السماء النقية نقاء سريرته، وفضاء مدينته وهي ترسل أمطارها، وتهزج أثداء رياح شباط الباردة لتستميل شجيرات الآس المنتحبة فجيعته!

أرعبته هذه اللوحة وكأنها أبواب جحيم صلبت عليها آماله، ليرتد هدير أفكاره بعد أن عرف هذه الوجوه المتحولة من حلم في رأسه إلى واقع مؤلم، هذه الوجوه التي اتكأت على أحزان سنواته العشر في مسعى لتجديد مسامراتهم وضحكاتهم، ليزأر كما الاسد قلبه بكاء مراً وهو يكمل ما لم تقله السيدة العجوز عند باب دارهم، وهو يبصر يد الصبي اليمنى المتجمدة إلى أعلى ممسكة علبة سجائر تلامس يد الطفلة اليمنى المتدلية إلى أسفل في تخطيط يقطر حزناً، ترنيمة هذه الفجيعة؛ ذلك الوشم (ع) على يديهما!

مثل شيء اندس بارتباك دفين، نظر إلى الشاب الواقف قرب (الأوجاغ) راح يقلب روح شوقه لتثير تلك

المخاوف داخله، وأوجاعه الباحثة عن ذلك الحرف؛ لتتشظى دموعه وهو يرمي بثقل نظراته إلى يده اليمنى، كانت موشومة بخط أخضر داكن! يلمع في ذاكراته وينحت على شفتيه ذلك الحرف الذي حفظه عن ظهر قلب عند أعلى كفه اليمنى قرب إبهامه، ليرى حرف (ع) في يد الشاب!

خطا بسرعة إليه وأخذه بين أحضانه ليطفئ لهيب عطشه المتقد منذ عشر سنوات إليهم، أفلته وسط ذهول أخيه! خرج وهو يحاول أن يلملم ظله المفترش باحة المقهى، فيما حفرت دمعتان انسكبتا من عينيه على الأرض لتصنعا وشماً، ربما للحرف نفسه...

* نشرت في مجلة الطليعة الأدبية العدد الأول- السنة الرابعة- 2002م

رُّمو

رمو...

ربعَ قرن صار عمري الآن؛ ينبثق من أقصى ذلك القبو لغز محير وثقيل؛ ليغلف تراتيل الهَمسات بظلمة خانقة، وتلك الوشوشات المنبعثة من نسوة الحي عن غموضه المرتعش مثل يده، تلك الشفاه لعجائز الحيّ التي تكثر من التغامز والتنابز ولا يسلم منها أي عابر للحي ولا تخلو أبداً من علكة نبات الماي التي ترطبها وتكسبها لونا لماعا.

***

انغرس في قبوه، بين بيوتات محلتنا القديمة والمنفرشة مثل حبات العنب عند حافات شوارعها

الإسفلتية الضيقة، المزدحمة والضاجة بصياح الأطفال والنسوة بعباءاتهن كأشباح تتراقص وهنّ ذاهبات وعائدات من وإلى سوق الخضار في منطقة (باب جديد) المجاور للحي، كان هذا يقرص ذاكرته التي لم تزل معتلة، وأنا مشطور كما الآخرين من وجوده الغريب واختفائه المفاجئ من دون أن يسأل عنه أحد.

***

مثل السحر أو كما الحكايات الخيالية، كان ظهوره في محلتنا – الغزلاني– من دون مقدمات متعارف عليها أو تعديلات، فمع تنفس الصبح سكن ذلك القبو تحت بيت – أم رافع– المواجه لمحلتنا، لم يره أحد وهو ينقل أثاثه وحاجياته -هكذا كان وجوده– مثل إشراقة الشمس، تخرج من دون بدايات، ليملأ فراغ القبو، ويعطي وجوده حقيقة لتلك الحكايات التي كان يقصها أبي علينا حتى ننام، بأنه أحد الجان والذي اتخذ من شقوق جدرانه مخابئ له، ببابه الخشبي المتصّدع والمطمور أكثر من نصفه تحت مستوى الرصيف، المغلق دائماً – لم أره مفتوحا طيلة حياتي– حتى بعد أن سكنه رَمُّو، هكذا اعتاد الناس في محلتنا أن ينادوه، ولا أحد يدري لماذا اختار هذه الحروف لتكون اسماً له؟ أو لماذا تعكّز على شفرات لسانه به؟ عندما سأله مختار محلتنا عن اسمه، وما الذي جاء به هنا، وأين هي

عائلته؟ أجابه بصوت ضعيف ومتعب بأن اسمه (رَمُّو) ولم يكلف نفسه عناء الرد على السؤال الثاني، ولاذ بصمت واغرورقت عيناه بدموع بقيت محبوسة، ومضى إلى قبوه يسحب جسده الصغير المستتر بجلباب صوفي متهرئ وممزق حتى أن خيوطه قد بانت مثل أنسجة جسد متفسخ، عاد وهو يسحب ساقيه الضعيفتين المكتسيتين بسروال عريض ينتفخ جيبه الأيمن -دائما- بأرغفة الخبز التي تهبها له نسوة محلتنا شفقة وعطفا فيأخذها ويدسّها في ذلك الجيب مثل شيء ثمين يخاف أن يراه أو يسرقه أحد، فيشكرهن بإيماءة خجلة من رأسه وحركة لشفتيه أقرب ما تكون لابتسامة من كلمة شكر ولتتحرك تجاعيد شفتيه باديا من خلالها ذلك الناب المصفر الذي يستخدمه ليقطع به الخبز.

كان دائما يخبئ في قميصه الصوفي (الخاكي) اللون، بأزراره الكبيرة كيس تبغه الرديء - كنا نهرب من عفونة رائحته الكريهة- كل صباح وقبل أن تستيقظ المحلة من رقدتها البريئة كان يجلس بهدوء بين باب قبوه وتلك النافذة الصغيرة الملاصقة للرصيف والمحمية بتقاطع مربع لقضبان حديدية هي المنفذ الوحيد للعالم العلوي وقد (سدها) بعلبة صفيح وسخة كأنه يريد وهو داخل عزلته أن لا يرى ولا يسمع أي شيء في انزواء مروأليم فرضه على نفسه.

يشبك يديه خلف ظهره ويقلب تأوهات صدره نافثاً دخان سيجارته الملتصقة بشفتيه على الدوام مثل غيوم ترسم تأوهات وهمية عندما ينقل قدميه الصغيرتين على درجات سلّمه الخمس التي تتوسط القبو، فتنفرش على جانبيه مساحة واسعة وعريضة، انفرش في نصفه الأيمن فراشه المهلهل يومئ بأسى واضح لحدود جسده الصغير، وكيس وسادته المحشوة بقماش وبقايا صوف التقطه من براميل الأوساخ، وقريبا منه تبعثرت أواني طعامه مثل محارات فارغة؛ وتلك الأقداح البلاستيكية الخاصة بلبن بقرته، هي ثروته التي يخاف ويحرص عليها، وسلوته الوحيدة لما تبقى من مواسم العمر المهين ومن ماضيه المندس في ذاكرته، احتلت البقرة الجانب الأيسر من القبو تلوك طعامها الذي يحضره لها، وبجوراها يستقر (السطل) المعدني الكبير تبدو عليه أثار حليب متيبس ومنساح على جوانبه، وعلى بعد مسافة قريبة منه بدت مدفأة علاء الدين النفطية وقد تساقط صبغها فبدت بقع جوزية اللون تلطخ بعضها بلبن جاف على بدنه وقاعدتها المستقرة على قوائمها الثلاث، لتبدو كلوحة سريالية تكمل وقار المكان.

***

قبل مدة طويلة وبالتحديد في أحد صباحات شباط عام 1991م تجمّدَت عقارب الساعة على العاشرة والربع صباحاً عندما نزف الوقت بصاروخ أحدث ثقوب في جسد البلوى التي أَلَمَّت بالمدينة، تلك القطعة الحديدية من نار وظلم انطلقت من طائرة (شبح أمريكية) صاخبة لتغير حركة النهار إلى رقدة كريهة، فانطفأت تحت ظلمة هذه الغيمة الثقيلة أحلام وآمال عريضة، ولتزرع في الحيّ كله ذكرى لحظات استحالت إلى جماد حفرت في أتون عقله البريء غصة مثل جرح لا يمحى أبداً، وسيظل منتصبا أمام مرآهُ مثل سهم توغّل وانغرز في ذاكرته، لم يعرف ما الذي حدث!؟

فقد اعتاد أن يستيقظ وزوجته مع آذان الفجر لتنضج خبزها وتعدّه في تنورها الطيني ليهيئوا مائدة إفطارهم من لبن بقرتهم في صباح مشرق جميل، فيوقظ أبناءه الثلاثة وحفيديه الصغيرين ثم يجتمعون بألفة وسكينة حول مائدة الطعام (الطابورية) الخشبية المدورة؛ العامرة بالحب، وبعد انتهائهم يتركهم كالمعتاد موشما على خد حفيديه قُبلة، تختصر حنانا ملؤها طيبة أرضه وبيته السعيد، وعند باب الدار تعطيه زوجته رغيف خبزها الحار يَدسُّه في جيبه ويودعها بابتسامة وحب، مصطحبا بقرته الى الفسحة الخضراء المجاورة للحي في (وادي العين) وهي تتبعه

برشقة ماء من طاستها النحاسية، تلاحق أثره متضرعة إلى الله أن يعود سالما.

وقف بعد عودته قبل المغيب والشمس المنكسرة تحاول الاختفاء في غياهب الأفق تلم ضياءها الخجول بسواد ليل ذليل، والحي يموج بحركات سريعة ومرتبكة لساكنيه، وهي تتسابق لتزيل في محاولة بائسة حطام بيوتاتها، وذكرياتها ومسامراتها عن أجزاء من أجساد الناس التي تهدمت فوقهم دورهم وبقيت منطرحة تحت أنقاض حجارتها وكأنها لا تريد أن تنفصل عنها!

فانتشرت مثل وباء في غفلة عن أمان الناس الأبرياء وعن حراس الوطن رائحة الموت، الموت الذي يأخذ أفراحنا وبهجة مسراتنا، الموت سرطان محشور حد العظم في صحيفة أيامنا، عندما يأتي في غير موعده، الموت درس يمر سريعا ويغيب، ليمتلىء الحي برائحة الشواء، رائحة التراب، رائحة الغدر، رائحة البراءة الموءودة.

تجمَّد مكانه ممسكا بقرته من خطامها يُحدق بعينيه الصغيرتين المكذبتين ما تراه.

كل شيء حوله يستنطق كبرياءه وحنانه، بقيت عيناه تحدقان علهما تريا أحداً من عائلته: زوجته، أولاده، أحد أحفاده، وهو يرى هذا البيت الذي بناه بصبر كبير وجَبَل عَرَقَ دقائق ساعاته وأيامه مع إسمنته ورمله، بعدها أقام

دعائمه على محبة وألفة، ليكون مكانا آمنا ومستقرا لعائلته، وهو يؤسس خلوده فيه؛ أصبح كومة تراب وقبرا وئدت فيه أحلامه وسعادته، تجمّد، فتجمّدت دموعه وسحناته الوديعة.

ظلّ واقفًا والوقت غير الوقت، والزمان أصبح غير الزمان، فمن يعيد ترتيب الأيام والذكريات؟ والمدامع لا تكفي لهذا القدر من الأحزان والألم، ألم مرّ وقاتل، ومَن سَتُقبَل هاتان الشفتان التي دبَّ فيهما اليباس؟ وعلى من سيتكئ ليتقي وجع السنين والأيام؟ زَفَر صدره آهات كحمم من نار وهو يسمع صوت جاره يقول: ها هو العم رمو وبقرته، هو الناجي الوحيد من عائلته.

حدَّق بعينيه الجامدتين باحثاً عن الحقيقة في ما يراه، حاول أبناء محلته أن يبعدوه لكنه مثل صخرة علقت حدَّ فجيعتها بالأرض بقي واقفاً كإزميل عتيق، هَدَّه التعب وماتت الابتسامات والضحكات في فمه بينما تنسكب الدموع وتنساح على خدّه المأكول والمجعد، وعلى أوداجه المنتفخة ظلما وبؤساً حتى انبلج نور صبح خجول ليوم قميء فاستدار، ومضى وكأنه لا يريد أن يصدق ما يراه، ابتعد يجرجر ما تبقى من جسده تاركاً روحه، سعادته، وأحلامه المقبورة مع بيته المهدم – لم يلتفت أبداً– مثل

لمعة برق أومَضت ثمّ تلاشى عن حيّه في (وادي العين) من دون أن ينتبه أحد لذلك.

بعد أن أخرج الأهالي وفرق الإسعاف جثث عائلته بحثوا عنه ليودّعهم ويلقي عليهم النظرة الأخيرة لكنه كان قد اختفى، ولم يعثر عليه، وأكد جاره أنه رآه يقترب من أنقاض بيته ليحمل رقعة رقم الدار وقطعة خشب كتلك التي يستخدمها الخطاطون – لم يستطع أن يستوضح عبارتها– وقبضة تراب من بيته ضمّهما بقوة الى صدره، ومنذ ذلك اليوم المشؤوم مضى ومعه بقرته ولم نعد نراه هنا أبداً.

كان يخيل لأهالي الحيّ بين فترة وأخرى العم رمو يقف الوقفة نفسها، محدوب الظهر مع بقرته أمام أنقاض بيته، دموعه مثل سياط تجلد روحه وتحرق قلبه قبل خده، لائذاً ومذبوحاً بصمت مرّ.

(2)

أصبحت محلتنا تستيقظ على صوته الأنثوي الرفيع، وهو ينتقل بين بيوتاتها صباحاً بمشيته البطيئة والمنكسرة؛ ليعطي كل عائلة ما طلبته من لبن، ونظراته تتفرع في كل الاتجاهات، وكأنه يخشى من شيء ما! وهو ينادي بصوت متعب ومنخفض: لبن، لبن، وبعد أن تنفد أقداح لبنه،

يجلس عند آخر بيت من محلتنا، ليمسح وجهه الحزين بذيل كوفيته التي أصبحت بديلاً عن شعره المتساقط، وذهب بياضها وانطلى بصفرة مريبة، يظل ساعة، وربما أكثر في مكانه لا يكلم أحداً، ولا يحاول أحد أن يقتحم خلوته، وإذا ما مرّ من أمامه أحد وسلم عليه أو خاطبه يحدجه بنظرة منكسرة قلقة، من دون أن يتفوه بكلمة، يبقى جالساً ليتسلم طاسات لبنه الفخارية بعد أن تفرغ من لبنها.

عندما كنت صغيراً تشاجرت كثيراً مع أخي من أجل الحصول على أقداح اللبن، كانت والدتي تعطيني الأقداح بعد انتهائنا من وجبة الفطور حتى أرجعها، وأشكره بصوت متقطع وخائف، عله يجيبني بكلمة لأرى شفتيه المجعدتين كيف تتحركان من دون أن يسحب سيجارته منهما؟ ليخرج صوته الذي أصبح مثار سخرية وضحكات النساء وهن يجلسن عند عتبة دار بيت (البك) يضحكن ويتغامزن بغنج عفوي ساذج، ما أن تذكره إحداهن بأنه عنين وليس فحلاً! وإلا ما معنى بقائه من دون زوجة؟ وأن قوة الصوت تدل على فحولة الرجل، فكنت أسترق السمع من تلك التجمعات حتى أدمنت ذاك الفضول لمعرفة سرّه.

حاولت مراراً أن أفك الطلسم في عقلي الصغير لكن من دون جدوى، وبعد أن يتأكد من جمع كل أقداحه ينهض

بتثاقل فيخرج كيساً من الصوف، ويبدأ أحد طقوسه اليومية باحثاً عن بقايا طعامنا في براميل الأوساخ ليأخذها إلى بقرته، وما أن يلج قبوه حتى يشرخ سكون المكان خوارها فينفض أمامها ما التقطه من طعام ويمسّد على ظهرها بألفة وحنان، قبل الظهر بساعة تقريبا يخرج ليجلس على صخرة حلان مستكينة بين القبو ونافذته وهو يَلفُّ سيجارته، وعيناه تعبثان بالأمكنة باستفهام بليد، يبقى جالساً بجمود مريب مثل نصب أثري لولا حركة عينيه، ودخان سيجارته المنبعث من منخريه، منذ صغري كنت شغوفاً لفك سر تفرده، واستفهام مغزى غربته وكثيراً ما اختلقت العديد من الأسباب للاقتراب منه ومحادثته.

(3)

الآن وبعد تجاوزي ربع قرن من عمري، مضى ما كان من وهج الخوف الطفولي نحوه، ومن خارطة محلتنا نرسم ملامح أحلامه وأحلامنا، ومن برق رؤيا أفكاري عنه تسلقت جدار صمته ممنيا نفسي باقتحام عزلته، محمياً بنضوج عقلي من جنون تلك الحكايات عنه، لعلي أنساب مثل جريان ماء إلى خيام عالمه الغارق بالصمت والترقب.

في ليلة ما توزعت مثل قناديل نجمات السماء، وغازلتها نسمات الهواء الندي، كنت عائدا إلى المنزل بعد

جلسة مسامرة في بيت أحد الأصدقاء، توقفت عند قبوه، فهاجمت أنفي رائحة بقرته تكسر هدأة الليل ولمع في عيني من ثقب في بابه ضوء مصباحه الزيتي، وقفتُ ولجّة القرار تعترك في رأسي، هل أدخل؟ فانتفضت من نسيجها أذناي لتنساق إليها مثل شعاع أصوات مبهمة جريحة تصلها من عمق ذلك القبو، مددّت رأسي في محاولة لأستوضح تلك الولولات الأليمة التي شرخت سكون الليل، وعبثت في عقلي الضاج بفضوله، ولاستكشاف صدق تلك الحكايات عنه، وبحركة لا إرادية انحنيت لأضع عيني في ذلك الثقب، ولأروي عطش سنيني وألغي تلك الاستفهامات المتأزمة في ذاتي لحل رموز وحدته، تجولت عيني في حدود دائرية غير منتظمة هي إطار ذلك الثقب؛ البقرة على بطنها مضطجعة تجتّر طعامها، أقداح لبنه وأواني طعامه الوسخة مبعثرة من غير انتظام، كيس تبغه ملقى على فراشه الرث، كنت أحاول تقليد مكبر الصورة، لكني أوشكت ان أكون عاجزا عن الإمساك بتفاصيله المضمحلة أمام فضولي الذي حجمّه ذلك الثقب، حدّقت بإمعان أكثر، ساعدني ضوء مصباحه ومصدر الصوت في رؤيته، ها هو يقف بجلبابه السميك وكوفيته المصفرة مواجها الحائط وظهره ناحية الباب، يتمايل مترنحا بوجع أظهره صوته العالي، لينتشر ضوء مصباحه الزيتيّ على الحائط، وينعكس من قطعة رقم الدار المثبتة بمسمار

أكل الصدأ رأسه وقد احترقت أرقامها، استدار برأسه شمالا شاهدت عندها قطعة خشب معلقة بجوارها، توهجت ألوان حروفها المحفورة عليها، لثمها بشفتيه فامتزجت دموعه مع ألوانها وأنفاسه المقهورة بعجز بائس، أبعد رأسه عنها فاجتاحها ضوء مصباحه الضعيف، ولتنخس قلبي قبل عيني تلك الحروف المشكلة بخط جميل وأنا أقرا (ارحمهم يا رب) فازداد صراخه واضطربت أنفاسه حتى أصابه الإعياء فسقط مثل جثة ألقيت من علو على الأرض، فخمدت حركته، واستقر على فراشه في استسلام كريه وبقيت آثار دموعه تسيل على خده المجعد.

انسحبت مذهولا عائدا إلى منزلي، وقد طاشت في رأسي تساؤلات كثيرة وفضول.

***

كان كل يوم بعد صلاة الظهر يختفي من محلتنا إلى قبيل أذان المغرب، فيعود وبيده قبضة من تراب، عرفنا فيما بعد حكايته تلك من مختار محلتنا فأشفقنا عليه وألفنا وجوده واحترمنا طقوسه واعتدنا وجوده بيننا.

في أحد الأيام لم يخرج من قبوه ولم يعط لبنا لأحد، اختفى من المحلة، ركض الرجال والنساء إلى قبوه كسروا الباب وحاولوا إخراج بقرته وهي تقاومهم وتمانع الخروج، فقد اختفى رمو وظل ركنه، أجدب مُمحِلا وكأن اليباس

غلفه، اختفى وبقيت رائحته مثل صورة من الأحلام، اختفى ولم يعد، بحثنا عنه في كل مكان، أختفى وضاعت معه أقاويل وظنون، اختفى وتلاشت معه الأحاديث والهمسات، أختفى مثل موجة ريح عصفت في هزيم مهدد بالاحتمالات فبقي قبوه بارداً وهزيلاً، وكثرت عنه الشائعات والتقوّلات وتردّدت مثل أغنية مألوفة وحزينة، توسلنا أن يعود، في لحظة لم ندرك حدودها اغتال الزمن مرّة أخرى مسراتنا وسرور أجراسنا الجميلة وذلك التآلف، ذهب ولم يعد، وبقي قبوه كما تركه، لكن الشيء الغريب في كل ذلك أننا دائماً كنا نرى أمام بقرته بقايا طعامنا وأقداح لبنها كاملة!

العودة.... وفصل الشتاء

دفعة واحدة لفظته الحافلة التي أقلتهم من معسكرات استلام الأسرى مع عمه الذي اعتاد أن يحضر لاستلام أي أسير يعرفه؛ كي يوصله لأهله... أمام دكان العم يحيى قبالة الفرع الذي يقع فيه بيتهم... ستشرق الشمس قريبا... فقط العصافير بزقزقاتها كانت المستيقظة لاستقباله.

الشارع نفسه الذي احتضن طفولته وصباه، وشهيق عمر تنفس معه نضوج رجولته، لم يكن يصدق بأنَّ أقدامه التي احترقت على إسفلته، ستنفلت مرة أخرى بعد كل هذا العمر الذي يبدو له الآن متأنقاً، وبعد أن غادره ذلك

النضوج المبكر لعمر انسكب كماء من جرة وهو يردد أغنية حزينة عن تلك السنين المأسورة، والذي شاخ وترهل شبابه وقبله أحلامه قبل أوانهما.

حمل حقيبته ذات الحزام المنفرد والمعلقة على كتفه... هذه الحقيبة التي اختصرت تاريخاً قد يبدو لمن لا يعرفه غامضاً، لكنه لا يستطيع إلا أن يدنيه من روحه وهي التي احتوت ذكرياته في الأسر وعن ساعاته البطيئة، أقصد الألم والتعذيب والحرمان والجوع والموت البطيء، إنها خمس عشرة سنة طارت منه لحظة اشتبكت تلك الأيادي حوله، ثم لترميه في ركن مهمش من زمان ظل مفقوداً وضائعاً ومتوقفاً، وبقيت بعدها روحه تتهادى بين هذا الأسر المقيت وفرح الحرية ولقاء الأهل! لكن الأمل في كل لحظة كان يخبو نوره كلما استدعي للتحقيق، ليرجع هذا الأمل يتوقد من جديد عقب انتهائه من الاستجواب!

هنا فقط تنفس رحيق عمره، وكيف سَيُصدّق ما يحدث له الآن؟ ها هو يقف مرة أخرى على إسفلت شارع محلته (الغزلاني) وما زال الوقت مبكراً جداً والشمس تنفض عن نفسها عباءة ليلة البارحة لتشيع بهجة يوم جديد، وفرحة لحظات انتظرها عقله وجسده وذاكرته وروحه أعواماً طويلة.

وقف بجوار بيت الخالة (فاطمة النشمية) في رأس محلته من جهة اليمين، لم يتغير باب دارها الحديدي ذو الصفاقتين والذي يعلو بدرجتين عن رصيف الشارع، وها هو عمود الكهرباء في رأس المحلة بالقرب من دار الخالة فاطمة ما يزال قائماً وكأنه انبثق من الأرض بارتفاع يعلو بيتها وفي أعلاه تمتد حتى الشارع ذراع الإنارة البيضاء وكأنها شاهدة – كانت ولا تزال – تحتضن تحتها جلساتنا ومسامراتنا الليلية مع رفاقي من أبناء المحلة في ليالٍ موصلية صيفية جميلة، وعن الشمال كالعادة باب دار الخالة (أسومة) الذي يبدوا دائما نظيفا وجديدا وكأنه يدهن بالأصباغ يوميا، ودكان العم (يحيى القجّوري) المواجه "للعوجة" عبر الشارع الذي يفصلها عنها كما هي تعجُّ بأنواع الألبان والأجبان والحلويات، فكانت كما السوبر ماركت الخاص بالحي كله، أما مخبز العم (رمزي) فمازال قائما مكانه، وصوت بريمز الأفران ينخر الآذان، وتملا الصباح رائحة الخبز الحارة، كم مرة اشترى لبنا وخبزاً في صباحات تشبه هذا الصباح؟ نظر إلى داخل المحلة فبدت له كما تركها، فبيوتاتها كما هي لم يتغير فيها شيء سوى ألوان بعض من أبوابها وجدرانها... ابتسم وهو يشاهد عربة خيل العم (صلاح) واقفة وسط محلته كما عهدها سابقاً صلبة،

وما زالت بقايا علف حصانها على الأرض بعد، تذكر طفولته وهو يركض خلفها ليتعلق بها والأطفال يصرخون:

عمو صلاح... (سَلْبَة من القمْجي) !!!

فيهرب وهو يشعر بزهو المغامرة الصباحية.

لم تزل المحلة وشارعها هادئة لم يخرج أحد بعد، فالوقت ما زال مبكرا جداً على خروج أهلها، لولا أزيز أفران الخبز ورشقات الماء بيد عمو يحيى الذي يغسل الشارع يوميا في طقوس لم أنسها، وأسعدتني مشاهدتها الآن فشعرت لحظتها بسعادة العودة، سلم عمي عليهم بصوت فيه من البهجة والتكتم، فأقبلوا يسلمون عليّ ويرحبون بي ويحمدون الله على سلامتي عندما قال لهم عمي: قررنا نعملها مفاجأة للأهل.

حمل حقيبته يخطو بروحه قبل قدميه، ونظراته تتقافز، تسابق زماناً أصبح الآن أشبه بسحر يغالب عنفوان الروح التي طالما تمنت هذه اللحظة، فهل سيعرفه الأهل بعد أن تغير كل شيء في وجهه وأبيض شعر رأسه؟ قال مخاطبا نفسه: آه... إنه عمر كامل، وطويل!

تنفس عبق سنواته، رائحة الحنين، والشوق لكل شيء، توقف لحظة وأخرج علبة سجائر، أشعل منها سيجارة وأخذ نفساً عميقاً ولفظه خارج صدره فيما عيناه تتابع دخانها الذي شعر به يخرج معه أشلاء من الهموم

والأحزان، لتغسل ذاكرته من إسراف خيالاته الممتلئة عن قاعات الأسر اللعينة... ظل واقفا يلفظ هذه الأوجاع مع دخان سيجارته!

لم يزل واقفا، ولم يخرج أحد بعد، فالكل نيام، وهو المستيقظ منذ أكثر من خمس عشرة سنة... لم يألف أمان هذا النوم الذي يقولون عنه بأن له سلطاناً غريباً، فما أن يحضر حتى تنسدل الأهداب احتراماً وخشوعاً له لتغفو مخيلة كاملة وجسد، لكنه غادر عينيه مع حبات الثلج المتساقط من السماء التي تصلب عليها نظره سنوات عجاف.

فجأة استنشق عبق رائحة شجرة التوت التي تظلل فناء داره، جال ببصره بعد أن حرك رأسه شمالاً قليلاً ليرى أغصانها مضطربة، وحباتها تتساقط بفعل حركة الرياح التي تتلاعب بأفنانها، ودائما يشاهد والده وهو يقوم بجمع تلك الحبات ليطعمنا منها أو يقوم بتوزيعها على الجيران، كم مرة كنت أتسابق وأتعارك مع إخوتي ونحن صغار لملئ (طاسة الفافون) بتلك الحبات، فاعدو وأنا أحملها بكل حرص واهتمام كمن يحمل شيئا ثمينا، وأنا كلي سعادة وفرح وتعتلج في صدري نشوة الانتصار لأعطيها للجيران وأنا أسمع هذه العبارة التي وخزت ذاكرتي وكأنني أسمعها الآن: إن شاء الله تكبر وتحقق جميع أحلامك

وراح عقلي يقلب بين دفتيه تلك المشاهد والصور، فكم مرة جلست على حائط دارنا المبني بالحجارة وخلسة من أعين أبي وأمي اقتطف من أغصانها القريبة من السياج حبات أمضغها سريعا لتترك على شفتيّ حلاوة وتلونهما بلون أحمر مسود

- (اذهب إلى داركم وأسرع، وسأقف هنا أراقب المشهد) قال عمي بنبرة ودودة يحفزني على الإسراع.

عالج هذا الإسراف في ذاكرته، عندما تقدم بقدمه اليمنى خطوته ليبدأ (فصل اللقاء) لكنه توقف عندما سمع صرير باب دار جيرانه انفتح وشاهد خروج رجل متوسط الطول يحمل بين يديه كتبا وأقبل تجاهه، تسمّر في مكانه قلقاً مشدوهاً فيما عيناه مصوّبتان إلى هذا الخارج، وذاكرته تعمل مثل مضخة في محاولة لكي تتذكر هذا الرجل، بعد برهة لمعت خلايا ذاكرته مثل شريط سينمائي اتقد، لتنير المساحة التي أمامها بالمرسوم والمحفوظ عليها ولتلفظ ذاكرته اسمه ويتهجأه لسانه بصمت ولتنفرج أسارير وجهه:

- إنه عصام ابن الحاج سعدون!

لكن هذا الخارج لم ينتبه لوجوده، ومن حركاته بدا وكأنه في عجلة من أمره ليلتفت إلى الجهة الأخرى من المحلة وليستقل سيارة كانت قد توقفت قبل لحظات من خروجه،

يبدوا أنه لم يلاحظني أو ينتبه لوجودي، أو أنه لم يعرفني، فهل تغير شكلي إلى الحدّ الذي لم يعرفني؟! بعدها شعر هذا القادم من نسيانات الأسر بنوع من الإحباط واليأس، لكن هذا لم يثنه عن مواصلة التقدم ناحية داره، وقلبه يبكي عمراً سرق منه، لكنه الآن -أعني قلبه- يتقافز لاستيعاب هذه اللحظة التي صبر من أجلها على جميع الهموم والمحن، وتحمل شتى أنواع التعذيب من أجلها فقط... تخطى بيوتات محلته وسواقيها ووصل قبالة باب بيته، كان الباب مصبوغاً بالأبيض، والآن لونه رصاصي، قرّب وجهه واستنشق رائحة الأهل وقبله قبلة مجنونة اختصرت آهات طويلة كان يلفظها هذا الفم هناك في قاعات الأسر، سمع لغطاً من الداخل لم يستطع أن يستوضح منه معنى، كاد أن يسقط على الأرض فاستجمع قواه وأراد كله أن يصرخ:

أمي، أبي، زوجتي... ها أنا عدت... أنا كريم... لم أزل على قيد الحياة

قفزت من عينيه دمعة أحرقت وحفرت لوعة الأيام الماضية، لتكون شاهدة على التعب الذي لقيه في الأسر، فارتمى بجسده على نتوءات باب بيتهم الجميل والتي تبحث عن كرات لامعة في قلبه الذي (داخ) في جحيم الأسر، هذه الدموع تفادت كل شيء وهي تحافظ على معارج أعماق روحه المحفورة بحب الوطن، وتجعلها زينة ترفع قبعاتها

أملاً وحباً لهذه اللحظة التي يلامس جسده وروحه تراب وطنه الغالي، لم يتصنع أو يفكر بهذه الحركة غير المتوقعة من يده التي تحركت دون إرادته لتطرق الباب وكأنها تستعجله اللقاء لتذري عن روحه هذا الجوع المغشي بهذيانات لم تفارقه منذ لحظة أسره وإلى الآن، انسحبت إلى الداخل إحدى دفتي الباب مفتوحة، لتخرج قطعة بيضاء نقية وجلة قلقة متلفعة (إشارها) المنساح على كتفيها، نظرت إليه عرف أنها زوجته، فوضعت قطعة من ثلج على جسده الذي أزداد جوعاً واشتياقاً، وتحرّق لسانه يريد أن يلهج بحمم من كلام يفجره عقله، ويخططه قلبه في صدره ليصطدم بأسنانه المصطكة، فلا يستطيع البوح، ولا الكلام يخرج، وتلعثم بتأتآت مرتبكة وخجولة، نظرت إليه، تقافزت من عينيها حمم من دموع خبأتها سنواتها العجاف لتلمع الآن مثل شمعدانات توهّجت توها في حفل زفاف لم يؤثث له ولم يرتب له، فسقطت أرضاً وهي تصرخ بصوت كان يحلم به خمسة عشر عاماً:

- ع..... ا.... د - - - - ك.....ر.....ي.....م !!!!

دفء الثلوج

ابيّض ليل شباط من كثرة الثلوج المتساقطة، والذي تمزّقه تلك الهتافات التعبوية من مكبرات الصوت الموضوعة خلف القطعات المهاجمة، وصياح القائد لشدّ الهمم وتقوية المعنويات، فتآكل إحساسه نحو دفء بيته المحشور في رأسه، حيث روحه/ نصفه الجميل هناك في بيتهم، الآن هانئة وهادئةً وحالمة، بموعد يزفّ وهو يعلن قدومي الجميل لكي تطيب انحناءات مضجع نومهما، فتلاشت تلك الرؤى من مخيلته الآن، فقط عند ازدياد فرقعة الانفجارات وتعالي أصوات وأزيز الرشقات والإطلاقات، وبدأ التأهب للهجوم، والكل اياديهم قابضة

على سلاحها، وعيناه مصوبتان نحو الأمام إلى السواد الذي لا ندري ما يخفي خلفه، والقلوب تتسارع ضرباتها وكأنها ستخرج من بين الضلوع، والأنفاس تفضحها الأبخرة المتسارعة الخارجة من الأنوف.

تدحرج من أعلى قمة (جبل ماوت) بعد أن اخترقت ساقه شظية لعينة، متجها قدر ما يستطيع إلى أبعد نقطة عن هذا البركان المحتشد بالفوضى والألم والرعب على طول السفح الممتد من أعلى قمة الجبل وإلى الوادي، كانت تبدو أشجار السرو مثل قناديل توقّدت ببياض ندف الثلج المتساقط والتي تعلقت على الأغصان وما تبقى من أوراق في مشهد جميل يناقض بروعته وسحره واقع المكان المشحون بالموت، ذاك البياض الذي كسا أديم هذا الهيكل الجبار ليغطي ذلك القبح الذي فعله الإنسان:

"ملأت روحي بالحنين" فكم يحتاج من ساعات لكي يصل الأمان هناك حيث نصفه الحلو، تماوج جسده غاطساً في هذا الأديم الأبيض المرصوص بالثلوج، لم يدرِ لماذا يحتاج إلى هذا الخيال أو تلك المساحات المتقدة في رأسه المشروخ بين وجع ساقه وتحسره؟ فهل ستمنحه التبرير لكونه لم يستطع أن يستمر مع رفاقه في المعركة بعد أن أكلت هذه الشظية لحمه؟ تمنى لو لم يصب، أو أن يتوقف هذا النزيف، فمنذ اللحظة الأولى وهو يقف عند

خط الصولة (الهجوم) حاول أن يتقدم لكنه شعر بثقل في ساقه اليمنى، وبحركة مباغتة من رفيقه الذي دفعه إلى الوراء فسقط أرضاً ليتدحرج إلى الأسفل مع ميلان السفح وتكسّر وانهيار هذه الأرض البيضاء المتشكلة حديثاً من تساقط الثلوج الآن، والتي لم تستقر أو تتصلب وهو يسمع صوت رفيقه:

انسحب، لقد جرحت ساقك، ارجع للمفرزة الطبية، تستطيع أن تنقذ نفسك...

انصبت في أذنيه هذه الكلمات كما جريان الماء، زحف مبتعداً قدر ما يستطيع عن أرض المعركة ليستند بظهره إلى جذع شجرة كانت وحيدة وقد احترق جزؤها الأعلى، استند جالساً وبدا بتفحص جرحه: إنه نافذ، فقد اخترقت الشظية فخذي الأيسر كله، حمدا لله لم يكسر العظم، لكن يجب أن أوقف هذا النزيف، وبدا بربط الجرح بقطعة ضماد أخرجها من حقيبة الإسعافات الأولية التي يحملها، أخذ نفساً عميقاً، تأوه... الليل ما زال بطيئاً، تأوه من الألم الذي سرى في جسده متباطئا وراح ينخر سريعا كل جسده، وزاد ابتلال ملابسه من شدة أوجاعه.

- هل تحبني؟ تذكر سؤال/ نصفه الحلو بعد زواجهما وهو يستعد للالتحاق بالجبهة.

- نعم، لكن عشق العراق أكبر حتى من نفسي، انفرجت أسارير وجهه عن ابتسامة يشوبها الوجع والحسرة، لتسبح أفكاره مثل طير أطلق سراحه حين راح في إغفاءة من عينيه بعد أن خفّ الألم قليلاً إلى مدينته، بيته، ليالي الأهل الجميلة "فغني يا روح مزيدا من الطرب والنشوة" هكذا انتشت لبرهة روحه بأغنية ردّدتها أحلامه في عقله، بعدها تصدّعت أعضاؤه وحواسه وانتفض جسده من هذا الألم الذي اشتعل فجأة كما النار في الهشيم، يدب مثل نمل في مفاصل جسده وروحه.

على مقربة منه قرب نبتة مغروسة في الثلج كان يحطُّ عصفور صغير، يحاول أن يستر جسده من هذه الرياح الباردة، رفعه ووضعه تحت (قمصلة) الصوف العسكرية، اندس العصفور أكثر إلى الداخل، وبعد أن غمره الدفء نفش ريشه وهزّ جناحيه وزقزق بصوت خافت، شعر بألفة غريبة تجاه الطائر ومسّد بأصبع السبابة على ريشه، إحساس جميل، بدّدت قليلا من وحشة ليله، قال مخاطبا الطير:

- ترى ما الذي تفعله هنا؟ أأنت وحيد هنا؟

أتذكر عصفوري الجميل، وتغريده ساعة الصباح، تململ الطائر تحت معطف الصوف

- آه... حياتي... وأنت، ألديك حياة؟ صدرت من الطائر زقزقة أعلى قليلا من سابقتها بعد أن أحس بالدفء، عاد يخاطب الطائر مرة ثانية:

أين عشّك الذي تسكنه؟ وفراخك؟ ورفيقة دربك؟

الحرب وحش كاسر يدمّر كل شيء أمامه.

تلمس جيبه، وجد سيجارة، أخرجها وألقمها في فمه، أشعلها، أحس بالدفء قليلا، كان الزمن واقفا، حدّق إلى الأعلى، فوق قمة هذا الجبل غاصت آماله وأحلامه الموغلة في ذاكرة زمن بليد، ما تزال الحرب هناك محتدمة تسودّ المشاهد فتدمر كل شيء، تساقط القذائف شاهد مقيت على الموت والألم الذي حملته الحرب إلينا، أحسّ بنفسه مثل سنبلة على شفا جرف عندما انهرس لحم ساقه بهذه الشظية الحقيرة، والبرد يزيد من ألم جرحه، أسنانه تصطك، ويداه بدأ يسري فيهما الخدر، حاول بث جزء من الدفء فيهما عندما ضمّهما ونفخ فيهما زفيره الحار، معدته طرقت هي الأخرى رأسه، فتحامل على آهاته ليخرج من جعبته ما تبقى من (الأرزاق الجافة) التي يحملها الجنود في ساحات القتال، لقد بقيت قطعة واحدة من البسكويت، قضم منها بنهم قضمة سحقها بأسنانه، وصوت تكسر هذه القطعة مثل سكين خدش ظلمة ووحدة ليله المقيت، فأخذ ما تناثر من فتات البسكويت، لمله في راحة يده وقربه من

العصفور الذي راح يتقافز ويلتقط ذلك الفتات بفرح وهو يحرك جناحيه ويفردهما تارة أخرى، فيما راحت أصابعه تمسد بحنان ريشه، ودغدغته نقرات العصفور فأنسته – للحظة- آلامه وأوجاعه، استرخى ودَسّ الطائر تحت (القمصلة) فاتجه بروحه للسماء:

- ربنا، أنقذنا من هذا المأزق.

فدبت الحياة في أوصاله لتستبدل أوجاعه بمشاهدة عذبة جميلة، فلمعت في رأسه ذكريات بيته، طائره المغرد داخل قفصه المعلق في شباك غرفته، كان يطعمه يومياً من فمه، ويستمع بعدها إلى تغريده العذب، يطربه بلذائذ موجاته العذبة ليسبح في بحر خيالاته الجميلة، قُربَ ساقه اليسرى تحرك الطائر تحت معطفه الثقيل محاولاً أن يندس أكثر ليحتمي من هذه الرياح الباردة، أجفلته هذه الحركة وانتشلته من خيالاته، حتى برز وزحف إلى أوصاله هذا القلق من أن يموت هنا وحيداً:

- ترى من يرسم حياتنا؟ وكيف تقدر آجالها؟ ولماذا نحن فقط من دون الناس الآخرين تلتهب أيامنا بالحروب؟

سرحت عند هذه اللحظة أفكاره التي كانت حبيسة داخل صدره ويخاف أن يبديها، فتململ من مكانه وحاول أن يتحرك، بهدوء تدحرج رامياً بثقل جسده إلى أسفل مع ميلان سفح هذا الجبل، فاستقام جذع الشجرة بعد أن

سحب منه ثقل ظهره وكأنه يودعه، فتقلب جسده على الثرى الأبيض وهو يتأوه ويكتم غصات من الصراخ المملوءة بالألم كلما لامس جرحه نتوء غير متوقع لشجرة أو صخرة لم يطمرها تراكم الثلوج المتساقطة، لم يستطيع أن يتحمل أكثر هذه الآمال المحفوفة بلذائذ النجاة، والمشبع بأمل الخروج من هذا المأزق... توقف ممسكا غصنًا بائسًا لشجرة لم تطمرها الثلوج، نظر للأعلى، على امتداد تدحرجه وانزلاقه كان هناك طريقا بحجم جسده استوى واعتدل، وتشاكسه خطوط دم حمر، ونظر إلى أسفل الجبل، لم يَبَن بعد، ما زال بعيدا، فمتى يصل إلى حافة الأمان ليسعد بالوصول إلى مدينته وينام عندها نوماً عميقا، وترتوي تكوراته العطشى لنصفه الحلو لتخفت بعدها لهيب وحدته المتوهجة الآن في قلب هذه العتمة، وليستلقي على سريره سعيداً مغمورا بفرح لا يزول؟

- ما الذي يجب عليّ أن أفعله الآن؟

منحته هذه الأفكار نوعا من العزيمة، فانزلق جالسا إلى أسفل، حتى بدا لي الشارع مثل بصيص أمل لمع أمام عيني، هذا الشارع المحاذي لهذا الهيكل، والموصل إلى خلفيات قطعاتنا... تلمس جرحه مثل منقب آثار فغاصت أصابعه بجرحه الغائر، وهذه الدماء، وتوقفت عند قطعة الضماد المتجمدّة على الجرح، فقد نزف كثيراً ولم يعد

يشعر بساقه، تلمسها وحركها علّه يشعر بيديه تلامس أسفل ساقه تحت الجرح، لكن دون جدوى لم يعد يشعر بها، ولم يدر بسبب البرد أم الجرح؟ فانتابه نوع من القلق.

- الحمد لله على كل شيء.

انسابت نظراته تصارع عتمة الليل، وتآكل بصره بسبب هذا البياض الناصع، فالتقطت أذناه صوتا كمن يشق جداراً صلداً لتستمعا إلى لغط من الأصوات المتداخلة والخافتة مع صوت انسحاق الثلج تحت أقدام قادمة من أسفل المنحدر، فرح وهو يهمس ويمنّي روحه أن تكون قوة قتالية من جيشنا ذاهبة لتعزيز القطعات عند الجبهة، كان شعاع الفجر يبزغ ضعيفاً وخجلا وبائسا يطارد بقايا سواد الليلة الحبلى بالموت، بدا الضياء ينتشر عندما شاهد وعلى مقربة منه مدخلا لملجأ تحت الأرض، مال بجسده تجاه الملجأ وزحف وهو يسحب قدمه المصابة، اقترب من المدخل فانزلق كلّه إلى الداخل، ورمى بجسده مثل نغمة تنطلق من لحن جميل، راعه ما رأى! الملجأ ممتلأ ومكدسٌ بأنواع القنابر والصواريخ وسط ذهوله وأمله باقتراب تلك الأصوات منه لتنقذه، شعر بقليل من الدفء فاستلقى على ظهره بينما راح الطائر يفلي ريشه وينفشه ويتململ داخل معطفه، أطلقه فصار يتقافز ويطير ويحط من مكان لآخر فرحاً جذلا بهذا المكان الذي طلّ عليهما دون

موعد أو وعد مرتب، كان الملجأ بعمق المترين تقريبا، والسقف مصنوع من الجينكوات الموضوعة على المدادات الخشبية المصفوفة باستقامة جوار بعض، لم يبدُ للعيان من الخارج بسبب اكتسائه وتغطيه بالثلوج، حاول أن يسترخي وينعم قليلا بالدفء، لكن اللغط علا واقترب وبدا يتنامى مثل عطسة وخزت عقله، لم تكن لغته العربية، فاستدرك: أيعقل أن يكونوا من العدو يحاولون الالتفاف على قواتنا؟

فخرست الآن أوجاعه، وآلامه أصابها الصمم، وهو يتحفز لأن يعرقل تقدمهم، وينبّه رفاقه من القادمين من وراء ظهورهم، جال ببصره في أرجاء الملجأ، لا يوجد سوى هذه الصواريخ، بحث عن فتيل يفجرها، لكن عبثاً! لم يجد شيئاً، شعر بخيبة، وامتلأت لحظاته بالمرارة، فتعفنت أفكاره، واستحقر ساعاته، كيف يمنعهم؟

لا أحفل بنازلة تميتني، أو انتهي هنا قدر ما يحتم عليّ ضميري أن أنبه رفاقي، لكن كيف؟

مثل صاعقة برقت في رأسه زوجته، يراها الآن تتثاءب وقد ملّت وحدة غرفتهما، والتي تزدان بوجودهما معا، ودفء فراشهما الذي اشتاق إليه، وتلك الرائعة/ نصفه الجميل تسابق عقارب ساعة غرفتهما، تستعجلها

الإسراع لتعلن قدومه إليها، أمه ما زالت دمعتها وصوت دعواها ترن في طبلة أذنيه أن يعود سالماً.

سرقته من خيالاته تلك الرمانة الملقاة على الأرض تحتاج لمن يرفع المسمار عنها كي تنفجر، عرف بأن هذا الملجأ هو كمين يسّد عن رفاقه ظهورهم، طار فرحا بها، زحف إليها وعرقه يتصبب، التقطها ونظر من خلال الباب إلى الأعلى: إنني معكم رفاقي، أشارككم القتال، ولتبعد عن كاهله تلك الحسرة التي تجذّرت في داخل روحه عندما انسحب من الهجوم لحظة أصابته، أمسك بالطائر وأطلقه خارج الملجأ بعد أن قبله، وحمله شوقه وحنينه إلى الأهل عسى أن يجد طريقا إلى النجاة، فازداد اقتراب هذه الأصوات من مكان وجوده، بدا تنفسه يصعد ويهبط، ونسيّ جرحه، وتلك الدماء التي ملأت الأرض، تسمّرت عيناه في نقطة تذكره ببيته والأهل، وكأن مخيلته حملته إلى هناك، فتسارعت نبضات قلبه وراحت أذناه تأكلان الأصوات لتستوضحا اقترابها من الملجأ، استجمع قواه وهو يمد يدّه لينزع مسمار الرمانة...

مزق الفجر المعلن قدومه صوت، دخان، نيران، فيما راح الطائر يغادر بعيدا وهو يرتفع عاليا، عاليا في عنان السماء!

ريح لن تهدأ

أفكاره المنغرسة بالإحباط والمشبعة بالحرمان توهّجت مثل قداحة، توهّجت وانطفأت، لتغادره روحه بعد أنْ فقد اليقين في هوس الحرب، وضياع نواميس تذوق جمال الحياة، أقصد هكذا تبعثر أصابعها سنوات عمره الجميل وهي تُقرر المغادرة من حياته وقلبه، لتزيد إحساسه بالوجع، وأن أحلامه التي أنهكتها براهين الوعي والحقيقة محضُ خيال: (إنها خواء تلك الحقيقة التي تولد من رحم الجوع والحرمان...)، هذا ما كان يرددهُ لها مرارا وبكل ما يمتلك من تاريخ وجبروت في محاولة البحث عن لحظة يحتفل بنشوة الحب معها، وهي المتلفعة بالزيف، لكنها

قررّت أن يكون رقما آخر يضاف إلى تاريخ أرقام عشاقها المهووسين بها، فقررت المغادرة...!

لم يمل أبداً من ملاحقتها علّها تتناسى هذا الزيف الذي أطَّرت به حياتها، وتعود مثل ملكة إلى عرشها الذاوي في قلبه، أبداً لم ولن تفعل، لتصفعه كلماتها الحادة: (أنتَ غير مقبول لديَّ).

الهروب من بلدته هو أول ما خطر على باله في محاولة لنسيانها، فالمسافة بينهما قصة يترنم بها قلبه فقط، نعم فقط بعد أن عزفتها أنامل روحه من ضياء الفجر النقي، ورددها المدى عبر حقول الياسمين في كيانه الذي كبر لأجلها، ومارس طقوسه في معبد الحقيقة والحب، فعانقت أحزانه تلك اللغة التي أسرج خَيولَها رفضُها له.

ماتت مدينته وهجرته طرقاتها وساعاتها وأيامها، فقرر المغادرة بعد أن صفعته الوجوه المزدحمة بابتساماتها المستهزئة، وهو ينفض تصوراته وهمومه عن يقين مبهم في طرقات لا تعرف سوى رائحة الزيف أو هكذا تصور وهو يتعلق بأول قطار ذاهب إلى مدينة بعيدة، فمنذ أن ابتعدت عنه، وهجرته، وشبح الموت مثل عجلة تدهس روحه؛ لهذا هرب منها يخدشه شعور بالتفاهة، فانسل كما دخان سيجارة يرتفع في الفضاء، هرب منها ومن غنجها ودلالها وعبثها المهووس، ومن كلماتها الجارحة التي تعصر قلبه،

وتقطّعهُ كما الخشب أو تفرمه لتجعله كومة رماد، مرات عديدة كان يطارد جموح أحلامه في محاولة الولوج إلى كُنه أحاسيسه المستعصية والمبهمة، لكن من دون جدوى! (أنا الذي تراكمت وتزاحمت في قرارة نفسي تلك التخيلات حول حب صادق وطاهر)، ودائما ما كان ينظر إليها من هذه الزاوية الحادة في وعيه، ذاك الوعي العارف والمتعطش لحبها، إنها أنثى تغلبت على هذا القلب الصغير، فلم يغضب لحظة من أفعالها وتصرفاتها وأقوالها - لكي تشبع غرورها النزق- وهي ترددّ أمامه دائما: (أنا يحوم حولي الكثير من العشاق والمعجبين، فلا أدري لماذا تضيع وقتك معي؟ أنا زهرة اللقلق لا يمكن أن أكون لواحد فقط، إنني مُلك الجميع! فلا تعد لتردد بعدها كما المظلوم والمقهور أن هواي مزقك! وكأنكَ تُسعَدُ بآلامك وانتهائك إلى لا شيء!).

هنا استأصل من جسده البريء والطاهر حزنه إليها ومنها، ليفرش لها مساحة بحجم الكون، حيث التوهج الأبدي هو شعار الحب على رصيف الحياة؛ رصيف تضيع فيه الحروف ومزامير العشق وترانيم الفصول المقتولة في زمان لا يصلح للنقاء (يا مراكب الحروف جرجر صوت النبضات من دموع العاشقين بهدوء مقيت، إنه الضياع في صحراء الجفاف، كما الغريق الذي يركل البحر ويغطس في

عتمة ليس فيها هياج، بل سكون بارد، إذن فالنسمة الجنون أو هوس المجذوب بعشق الهي!).

هرب من هذه المرأة، أم هرب من نفسه؟ هذه النفس الهادئة والمنضبطة التي لم تعرف يوما الزيف، ألأنه تَحسَّس مكامن ضعف روحه وصدقه في زمن لا يعترف بنواميس الفروسية؟ فهل يفرح كما مضى من تمزقه وهروبه وتبعثره إلى لا شيء؟ (إنه يحبها، ويجرحه الشوق إليها، وتربكه نظراتها التي تسبح بعطرها!).

ركض مسرعا من أمامها، يسابق زمانه مبتعدا عن أفلاكها، وعن صور المكان الذي جمعهما معا، ومن تلك الذكريات، فكل ما حوله أصبح مزيفا وهشا لا يطاق! فها هو يجوبُ شوارعا ويلتحف سماء ويفترش أرصفة فقط، لكي يتناسى أن كل ما يملكه في حياته هو لا شيء! وكومة جروح تنزّ مرارة أحزان من لحم عمر تبعثرت أوراقه لتستقر في فؤاده! والقطار يعدو سريعا به يطوي خطوط صفحات آلامه، وهو واقف قرب النافذة لينفلتَ منهُ دفء نظراته مودعًا مدينته وذكرياته وأحلامه وتلك الطفولة الغضة المعبقة بشذا ورود حديقة الشهداء وسط البلد، (فهل حقا سأغادر بيتي ومدينتي؟ ومتى سأستنشق عبير بيبوتاتها وشقائقها الحمراء مرة أخرى؟ ومتى ستزغرد أنفاسي مع حفيف أشجار التوت السحرية قرب قلعة باشطابيا؟ ومن

سيداعب أجنحة فراشاتها الملونة قرب الجسر العتيق؟ ومن سيطعم نوارسها وقدماه تلعبان في شطآن نهرها الممتد كشريان وهو يمنح الحياة لمدينتها وناسها؟) وأنا أغادرها من دون رجعة! فربما أكون مجنونا أو هلاميا في قراري، لكنها الحقيقة!

تحرك القطار وعلا صوته يخدش الأذان، فدارت مدوراته اللعينة وصوت صرير احتكاكها فوق خطوط السكة الحديدية تطحن برأسه ما تبقى من أماني الاستقرار أو العودة، غادر مسرعا إلى بلاد الثلوج التي قالوا عنها: (إنها ستطفئ لهيبك وتجمد احتراقات حبك لها وهيامك بها، علّك تنساها أو تعيد ترتيب وريقات روحك) - يا من ضيعتِ الآلآمُ عمره - بقيّ مكانه واقفا لا يعلم كم الوقت مضى وروحه مثل طائرة ورقية مرمية بين السماء والأرض متقرفصة على بعضها، مهملة ومنسية!.

أعوام مضت في غربته وحيدا مشردا مسكونا بالخوف واليأس، تضايقه أحلام عمره الذي انفرط كالعقد من بين أصابعه، فأكلت تلك الغربة التي فرضها على نفسه حتى روحه، كل تلك السنوات لم يعرف الاستقرار والأمان؛ لذا كان يتنقل من قطار لآخر ليقلّه سريعا إلى حيث لا مكان يأويه، ولا أحد يعرفه؛ أقصد هروبه منها (فكيف أملك ليلي، وأنا قد أضعت نهاري!).

سئم من مرارة الوحدة والغربة التي يعيشها بلا هدف، فهل ثمّة عودة تلوح في أفق الروح، والشرود مثل مكحلة أطرت جفون عينيه بالألم والحنين وتشبعت بها عروق قلبه، فأصبحت تلك العيون التي غابت عنها معالم مدينته وجسرها العتيق ومئذنتها الحدباء تألف بلاد الضباب اللعينة وبنايتها القديمة وثلوجها التي تعتمر قمم جبالها على مدار السنة، لماذا لم تنسهِ شيئا كما قيل له عند هروبه من مدينته؟ أو تبعد عن مخيلته تلك الكلمات التي نخرت عقله وأكلت جسده؟ (ليس بمقدوري أن أبني لها أحلامها وآمالها!)، ما زالت هذه الكلمات تهرس وجدانه كما المطحنة وتلحّ عليه وتنخس ذاكرته، لم تستطع كما قالوا هذه البلاد أن تنسينه عشقها، أو ترمّم أجزائه المحطمة.

وبعد كل هذه الأعوام الملطخة بالأخطاء والقلق بدأ يضجر من يومه وحياته وصوت والده – رحمه الله - مثل ناقوس يرنّ في أُذنيه: (الحياة مثل درب معبد طويل وشائك، يمر وسط حديقة غناء فإن لم تأخذ جزءًا من أزهارها، أو تتعطر بأريجها، واكتفيت بمرورك فقط، ستكون في النهاية جسدًا بلا روح، وستخرج خاسرا لا تملك سوى ذكريات ناقصة ومشوهة عن ألوانها وعطرها).

هذه المفردات المعلقة على جدران عقله ما زالت تفور وتغلي داخله لتحيله إلى جَدثٍ متيبس لجسد متعفن يعاني الاحتضار نحو هاوية لم تتضح بعدَ كلِّ تلك السنين نهايتُها، وأنه مثل عود ثقاب توهج لحظة ثم انطفأ! فكيف ستلامس أصابع روحه الصدق بعد كل تلك الفوضى والإهمال اللذينِ سكنتهما نفسه، والزيف يغلف حتى الحقيقة؟

وخزته شوكة الحنين للأهل والأصدقاء، واستنفرت رقود الوجع المرّ للنهوض والتقدم بخطوة لإنهاء تأزمه وهروبه، ففي هذه البلاد الغريب كل شيء فيها عنه، وعند هذه اللحظة بالذات لحّت عليه ذكرياته مثل ضياء برق في سماء مخيلته، فقرّر العودة، لكن كيف يعود إلى محلَّته وهو الذي طوى في سرداب قلبه المظلم تلك المشاهد التي قتلته من دون إراقة قطرة دم منه؟ وهو يشاهد زوجها يحمل لها الهدايا والحلوى، ويمنحها سعادته دفئا يذيب ثلوج شمال وطنه - وتجمد لي روحي - لتلد له أطفالا يملؤون دارهما ضجيجا وفرحا يمزق عقلي قبل قلبي، وهو مهمل لا أحد يمنحه حتى ابتسامة سوى زمان انتزع حقارة هذا المكان ليرميه بها فتستقر في روحه قبل رأسه! لا لن يعود؟ فكل ما يملكه هناك هو لا شيء، وهنا يملك هواءً، وسماءً، وأرصفة ألفته وألفها، يعيش معها وتعيش معه، ولأنها تحمل نفس ملامحه وقساوة وجهه (أيكون هذا جنونا؟ لكن

ماذا أفعل؟ وأنا هنا منذ عشرين عاما لم يفكر أحد بالسؤال عني، فلا أدري من ألوم؟ نفسي أم حظي العاثر، وكأنني حبة فالول انتزعت ورموها بعيدا، ثم نسوها).

قبل ساعات وصلته رسالة من الأهل، فاقتادته أسيرا نحو عوالم أوصدَ منذ زمان الباب دونها، ومسح عذرية حبه الصادق من ماضيه وحاضره وربما من مستقبله، وغلّف أفراحه كومة ثم ألقاها على رصيف لا يمر به أحد، رصيف بهتت ألوانه ومباهجه، حمل الرسالة بارتباك تتصارع داخله مشاعر الفرح والحزن، فأعادت فيه انتباهة عقله المعتمة، وكأن خيول الحنين أسرجتها انثيالات الشوق، فما الذي حصل ليتذكروا دمية رموها؟ أهو الحنين؟ أم الاشتياق؟ (والدتي تذرف دموعها، وكأنني أتحسس رطوبتها على الورقة، أخواتي سيأكلهن الجوع، فالحصار ظالم هنا، وليس بمقدور أحد الحصول على ثمن وجبه طعام، - هكذا سطرت أحرف الرسالة- فإن لم ترجع فإنك ستفقدهن وإلى الأبد!).

بكى بحرقة، نفسه وأهله، فما زالت الأحزان تلاحقه، والهموم زخارف أطرت روحه سار كئيبا ينوء ظهره بما لا يستطيع حمله من مسؤولية ألقتها أمه عليه بعد كل هذه الأعوام، وهو المنسلخ والهارب حتى من نفسه ومن رائحة

ماضيه وثرثراتكم، فكيف يملك أن يحافظ عليهن وقد ضيع نفسه؟ وكيف يستطيع أن يمنح شيئا لا يملكه؟

مزق الرسالة ورماها عاليا، ثم بكى بحرقة، مودَّعا رصيفه الذي كان ملاذه وسكنه لأيام وليال ذاق معه طعم البرد والحر وحرقة الجوع والتعب والخوف، فاستلَّ جسده المنهك منه، ركض إلى أقرب محطة وهو يلعن حظه، ليستقل قطارا، كما تعود في غربته الانتقال بين القطارات والمدن، ليأخذه بعيدا حيث لا وجهة له، ولا مكان محدد، سوى الهروب وعدم الاستقرار، علّ هروبه يعيد ترتيب أشيائه.

تحرك القطار سريعا يصفر كما صدره بحرقة وألم وتخدش الدموع خديه فيما كانت عيناه تجوسان من خلال دمعهما هذه القصاصات التي ارتفعت عاليا تتراقص باهتزازات غير منتظمة، تناثرت فحملتها الريح، لا يدري إلى أين؟ لكنه أحسّ بأنه معلق بكل قصاصة منها وأن روحه تتقافز لتستقر أو تهدأ، لكنها، أبدا ستظل في حركتها العشوائيه!

يقظة وبعض حلم

تحت وطأة الكسل، وانسحاق العمر بين الكتابة والكتب والركض على الرزق، وبعد هذا العمر الطويل ومروره على أفكار لم تذبل، ولن تتساقط، هذا هو بالضبط كل ما التقطه وهو جالس في مقهى (الكرم) لأبي إيلاف في حي الجامعة، تلك التي خضب على أرضها شبابه واستحالت أزقتها وشوارعها وعيا كوّن من خلاله أعماله القصصية والروائية خلال سنوات عمره الطويلة، والذي لا يستطيع أن يدنيه الآن كمبتدئ أو خال من التجارب، وهو الماشي على أرصفة مدينته الرائعة!

الآن فقط قرر أن يستريح، لهذا تراه يعود إلى حيث بدايته مع صديق صباه منذ أن عرف لذّة اكتشاف الأشياء لأول مرة، وتحسس زفير صبره.

الآن وهو جالس في المقهى برفقة صديقه الذي يقرأ في جريدة "للحب طعم الاحتراق" فجأة علا صوته ثم رمى بالجريدة جانبا:

-لا أدري كيف يكتب هؤلاء الأدباء؟! وعن ماذا يتحدثون؟

وفتح فاهُ بابتسامة، أردت أن أجيبه وأنا الأعزل إلا من جدار الرجولة والتعارف والشهادات والأفكار السائبة ضد كل ما هو خطأ أو نغمة نشاز والـ... لكن شبحا يلّفه السواد لامرأة قد أنهكها العمر والانتظار، ظهرت أمامي كومضة لنقطة بيضاء، لا أدري من أين قدمت؟ ولم أنتبه من أين حضرت؟ تتوكأ على عصا مبرمجة مع آلامها وأحزانها وصبرها، أراها تتقدم تجاهي.

مثل دهشة وقفت أمامي، وذهبت مسرعة بعد أن رمت ورقة أمامي على الطاولة، تحمل نبض صبرها، ومضت تسرع بخطاها المثقلة، لم تتفوه بأية كلمة، مضت وهي تجرجر معها وخلفها أكواما من الاعوام داخل ضلوعها الصغيرة!

اتجهت بنظري إلى صديقي مستفهما والدهشة تبخّر وقار عمري وعينيّ، التفتّ بعدها ناحية المرأة، لكنها مثل دخان ظهر واختفى، عندها حدّقت ملياً في هذه الورقة، والتي بدت لي متهرّئة وقديمة، والاصفرار مثل مرض قد

انتشر وأكل جزءا كبيرا من بياضها وتآكلت طياتها، قلت لصديقي اللائذ بصمت وسكون ومستغرب مثلي مما جرى، وأنا أنظر لأشبع فضولي من هذه الورقة، وقبل أن أمدّ يدي إليها:

- لا بد أن هذه الورقة قد كتبت منذ زمن بعيد!

لم يتفوه صديقي بأية كلمة وظلَّ غارقا في دهشته، حاولت فتحها بعناية خشية أن تتمزق وأفقد مفتاحا للغزٍ أحاول أن أفهمه، وتلح روحي مستنجدة بعيوني أن تقرأ أسطر هذه الورقة.

فما أن انبسطت الورقة أمام عيني بوميضها الممزوج بالاصفرار ولون القلم حتى جذبتني كلمة – حبيبي – في أعلى الورقة، نظرت إلى الاتجاه الذي ذهبت منه المرأة لكنني لم أر سوى آثار لروح معذبة، وطيور على الأشجار كانت تتراقص، بعدها نظرت إلى صديقي الذي ما زال مأخوذا بالدهشة والصمت والترقب!؟ عدت إلى الورقة لأقرأ:

= مهجة قلبي وروحي... يا أملي في الحياة، وضاعت بقية كلمات السطر في طيات الورقة المتآكلة لقدمها، قفزت إلى السطر الذي يليه:

= أنت لا تعرفني ولن تعرفني... لأنك لا تريد أن تعرفني... أتدري لماذا؟ وضاعت بقية الكلمات واستمررت أكمل ما أستطيع أن أقرأه:

= أنت تسكن حيَّنا، وكنتَ تجلس دائما قبالة دارنا وخاصة في ليالي الصيف، وضاعت بقية الكلمات.

= أراك ولا تراني... أحس بك... ولا تشعر بوجودي، كان الكتاب الذي بين يديك يشغلك عن كل شيء، كنتُ دائما ما أتساءل: ترى ماذا بين أسطر الورق لتجعله، وضاعت بقية الكلمات.

= أكثر من مرة حاولت أن أكلمك! لكن حيائي، وكبريائي، وخوفي من الأهل منعنني... كنت أخرج ليلا وأنت جالس وعيناك غائصتان بين دفتي الكتاب لأرش الماء وأنظف عتبة الدار علّك تراني وتشعر، وضاعت بقية الكلمات.

التفتّ إلى صديقي ملغوما بالدهشة والتعجب ومتسائلا علّي أجد عنده إجابة تروي فضولي:

- منذ متى كتبت هذه الورقة؟ إنها مهترئة وقديمة، تكاد أن تتمزق! لم تنبس شفتاه بأية كلمة، فيما عيناه تحاولان الفهم!

عدّت مجددا إلى الورقة لأقرأ وأستوضح سرا بدأ يضغط على روحي ويؤنبها، ولتذري عنها أطناناً من الاستفهامات والتساؤلات!

= من أجلك لم أوافق على أيّ رجل تقدم لخطبتي... كنتَ أملي وحياتي، فقد أحببتُك، نعم أحببتُك منذ أول مرة رأيتك فيها، ودائما ما كنت أمنّي نفسي، وأرى أحلاماً بأنك ستطرق باب دارنا لتتقدم وتطلب يدي للزواج، أو أن تلمس يدي لنرش الماء سوية على باب الدار، وضاعت بقية الكلمات.

= خلقتُ لك، وخلقتَ لي، هكذا أمنّي نفسي وأواسيها، كنتَ في النوم أنيسي، وفي الظلام بطلي الذي يطرد وحشتي، أتذكرها جيدا، ولم تَغِب عن بالي أبداً، تلك الليلة (الحزيرانية) عندما تجهَّمت السماء وتلبدت بالغيوم، فتساقط المطر سريعا مدرارا، نهضت من مكانك لتحتمي تحت مظلة دارنا، حينها كنت أقف على عتبة الدار، نظرت ألّيّ وابتسمت ودوى صوتك يهز داخلي، ليلامس شغاف قلبي، أحسستُ بأني أكادُ أجن، وكادَ أن يغمى عليّ من الفرح عندما قلت: "مساء الخير، عذرا، لم يحدث أن أمطرت في مثل هذا الوقت"، ابتسمت، وركضت مسرعا إلى داركم، ودعتني بنظرة وابتسامة عندها شعرت بأن الليل أصبح غير الليل، وأن الحياة أصبح لها طعم آخر، عندها

بدأت أرسم أحلاماً وأتصوّر حياتنا المقبلة الهانئة السعيدة، ودعوت الله أن تمطر ليلة أخرى، ربما يجد، وضاعت بقية الكلمات.

قلت لصديقي الغارق في ذهول وهدوء، والاستغراب منقوش على وجهي بصوت حائر:

_ هذه المرأة تحبني، الآن تذكرّتها، إنها جارتي في حيّنا القديم، رباه ماذا فعلنا بها أنا والزمن؟

لكنه حاول أن يجد لنفسه تبريرا وهو المندس في نزواته حدّ أذنيه، والمتزحلق الكبير في طقوس لهاث لياليه الحمر، إنه يرتطم الآن بحفنة وهم تحتمي تحت نيران عمره، والمرشوش بحجارة تكاد تمزق مهابة وعيه الأنيق، ليدرك الحدّ الفاصل بين اليقين المعاش – خلال سنوات عمره الطويل – وهو يرزمه ليلقيه في البُعدِ البعيد/ أقصد الأمنيات التي تسربت من حياتي _ وبين حقيقة تستنطق مستقبلاً وئد قبل أن يولد - عاد من شرود فكره ليرجع مرة أخرى إلى الورقة:

= بعدها تغّير حالك فما أن تراني حتى تبادرني السلام، وتترك كتابك وتبقى تنظر إليَّ، فكنت أعيش على هذا، وأشعر أني أملك الدنيا، وضاعت بقية الكلمات.

= كم من عريس تقدم لخطبتي، كنت أرفض، وأقول: متى ستحضر لخطبتي؟ بدأ العمر يأكلني، والكلّ يتساءل لماذا

ترفض؟ ما السبب؟ إن العمر يمضي كالقطار لا ينتظر أحداً هل أقول، وضاعت بقية الكلمات.

= اختفيت فجأة، ولم أعد أراك، أخرج كل ليلة أنتظر وأراقب الطريق، لكنك لا تأتي، ومضى الوقت، وتآكل شبابي، وأجدبت حياتي، ولاك الزمان نظاراتي، ولفَّني كابوس ثقيل، وغادرني ربيع عمري وأنت لم تأتِ، كان الأجدر أن أفهم لكني، وضاعت بقية الكلمات.

لهذا قررت أن أنتقم منك، يا أجمل وأعذب إنسان رأيته في حياتي، يا أملي الذي لم يتحقق! بأن أجعلك تؤنب نفسك، وضاعت بقية الكلمات.

هنا بدأ يقتنص تخطيطا لحياة بدت له مثل امتدادات صحاري الجزيرة شمال الموصل، وإنها بدت مترهلة لسعادة مشوهة، وهو الذي انغرس في حياة ظنَّها مُترفة، ليزفر وهو يتمم:

- الخسارة الكبيرة في حياتك أنك لا تعرف ما الذي تريده خلال عمرك، وأنك تفرط بالأشياء الثمينة لتعود بعد ذلك نادما على الذي فات، لكن العمر مثل القطار يمضي ومن المستحيل أن يعود إلى محطة غادرها!

عندها تحسس روحه مثل نقطة ما زالت ملتصقة بتلك الأيام، أيام صباه، لهذا تراه يعود إلى حياة الصبا، وأيام تسكُّعه في شوارع محلته القديمة مع رفاقه، لكن الآن

كلهم ذهبوا، ولم يعد يراهم، حتى مقهى (الكرم) تغيرت، والركن الذي يجلس فيه بصحبة رفاقه قد ذوى... دائماً ما كان (أبو إيلاف صاحب المقهى) يحجزه لهم، ويسّميه ركن الأدباء والمثقفين، أما الآن فهو يرى فتياناً انحشروا فيه مثل نغمة نشاز يلعبون النرد ودخان النراجيل يشوه المكان، وتتعالى قهقهاتهم، شعر بالمكان يبكي هذا الخواء/ الضياع... وفي خضم شروده تحسس بأن رفاقه ما زالوا جالسين (واستكانات) الشاي فارغة أمامهم – القاص علي حيدر (الجميل المحيّا والأنيق) يُسمع يعرب السالم وناظم علاوي آخر قصة كتبها، فيما انشغل الشاعر محمد بدر الدين البدري (آخر العظماء) كما يحلو له أن يلقّب نفسه بقدح الشاي الممتلئ بالسكر بعد أن شرب زجاجة كاملة من شراب (التوسيرام) وتقاسم الزجاجة الاخرى مع الجميل القاص ليث غانم وبجواره الشاعر (سليط اللسان)، حاتم حسام الدين يقرأ لبشار عبدالله ونزار عبدالستار إحدى قصائده الحديثة، فيما انزوى وحيدا في ركن المقهى كعادته الشاعر كرم الأعرجي والسيجارة لا تفارق شفتيه، وبالقرب منه الشاعر عمر حماد هلال يسّطر على ورقة أبياتا لقصيدة هلالية، والمنفضة متكدسة بأعقاب السجائر... ودمعة تترقرق من عيني وليد الصراف وهو يشدو بأبيات من قصيدة للشاعر المرحوم محمد البياتي صديق صباه

أمام هيثم غانم وصالح عيسى، وتلك المناقشات تخترق جماجمهم للمرواتي عمار أحمد وهو يلعب بأنامله على آلة العود الأثيرة إلى نفسه، ما الذي فعلته؟ وماذا جنيت؟ بعدها تقاطرت من عينيه دمعات دوت في ذاته:

- لماذا أشعر بأني غريب عن كل شيء زفر/آه / لعنة الله على الأيام، بل علينا عندما نبكي بحرقة أيامنا التي انفلتت من بين أيدينا بإرادتنا، ومن دون وعي منا، أطرق برهة، ثم عاد إلى الورقة ليفاجأ بأن الأسطر الأخيرة قد كتبت حديثاً، باستعجال قرأ:

= لم أكلَّ أو أملَّ أبدا من أنك ستكون نصفي الجميل حتى ولو حصل ذلك في أحلامي فقط، لهذا بقيت أبحث عنك ولم أيأس أو يصبني الملل، واستمريت أسال عنك كل من أعرفه أو لا أعرفه، وأخيراً وبعد جهد كبير وعمر تسرّب مني عرفت مكان وجودك، حزمت حقائبي لأحضر إليك... لكني لم أصدق حين قيل لي: إنك الآن في حيّنا، في مقهاك المعتاد، لهذا قررت أن أعطيك هذه الورقة!

وأنا لم أزل أرش الماء على باب الدار...!

إليّاك

في رحيله العاشر سرّح عن فكرة تلك السحابة القلقة، ليعّمد بحر أحلامه المغتربة، ويبدأ فصل اللقاء حيث لا يكون الاغتراب إلا عند اللقاء.

خاطبها بلغة تتساقط أمامها منائر الخادعين، وجدران عقولهم العتيقة، أرادها سوسنة، نرجسة، حبيبة، فراشة من حب، هكذا أفرغ رأسه، قبل رحيله قائلاً:

لا يكون الخطاب إلا مني إليك، ومنك إليّ، لهذا سأجعل من حروف اسمك عناوين رحلاتي، وسأسجل في مزاميري القديمة والمحترقة بصمت الحب والجلال خطابي: (إليّاك).

ب- رحيل اللقاء

أعود بعد هذا العمر افترش النهايات وأبعثر البدايات، بعد أن ترددت كثيرا، إلا أني قررت أن أعود... أعود بتلك (المريلة) حول خاصرتي، وأنا أعد قطع اللّحم بعجين للزبائن والعرق يتصبب جراحات لا تنتهي أمام (كوة النار) تلك الكوة التي أحرقت كل شيء إلا أحزاني، وآلامي، وعبثي الطفولي.

لم ينته الاحتراق الممزوج بلحظات الضحك وبريق أمنياتي الصغيرة، وبعد حاضر وماضي، هذه الكوة (فرن اللحم بعجين) التي أنضجت زاوية في داخلي، كنت أظن أنها تيبَّست وماتت إلى الأبد..! أقصد ملايين من /ب/ الرحلات.

اقتربت لتلبس روحي المضطربة، وتوقظ نسيج لغتي، مثلما تضمد جراحات عزلتي وغربتي بعدها، لتزهر روحي كشفق يوم مضطرب، وهي تسلمني لصمت متأنق مثل خرير جدول صغير– ابتسمت – إمامي أنا/ كوة النار، وهي تطلب قدحا من الماء، لم أعرف بأن الرحيل/ب/ باشطابيا... باب شمس... باب لكش... باب الجديد... باب الطوب، كل الحروف اجتمعت لتنتهي عند شفتيها، وليتردد الآن فقط صدى صوتها، وربما إحساسها، ثم ينفرط ويتشكل مرة أخرى.

- أي ألم وحزن تحويه عيناك؟ مثل ضياع وشرود مبهم.

فراغ اجتزأ كينونة جسدي المتقد لها! الآن فقط، افترض بأن جهاتي كلها أصبحت لها/ لي، وهي تروم لمس ذكرياتي المستعصية لتهمس وهي المتحدثة الاولى من قلب العتمة:

- دعني أضمدُ جراحاتِ حُزنكَ، فالعشق سِرّ يَقظة اشتعلت صحواً فيّ/ فيك، يا شعاعا اخترق قلبي، وأنت تنظر إليّ لترتب أنوثتي مثل سرب حمام، ومثل رحيل دائم... أحببتك.

إذن دعيني أتحركُ ببطءٍ، ألملِمُ بقاياي المبعثرة، أتلو تراتيلي، لِيلهِبني وجودك وفيض حنانك، وأنتِ تزهرين فيّ غيمات تعبي! بعد تكسّري في الحرب، ليال عصيبة، بددّت نقطة البداية، وربما النهايات تشظّت، قبل رحيل اللقاء، فساعات المعركة دربا يحرق أيامي، وتأكل آمالي ومسراتي، لتضيق فيها الرؤى، فنهارات وليالي (بندورة) ذلك الجبل الأشم لا تشبه نهارات وليالي باب جديد، باب لكش، باب الطوب، باب شمس... فإلى أي الرحلات سأتحرك؟ لا أدري... وجبل بندورة يلملم شظاياه بالموت والعدم، كقلقٍ عصيب يقضي على راحتي، ويُبَدِد أفياء مسامرات الشتاء ورائحة الشاي في بيتنا الصغير، ونحن مجتمعين حول المدفأة،

لنستمع إلى قصص أبو زيد الهلالي، ومستوفي خال، وعنترة بن شداد من ذلك الفم الجبار – والدي رحمة الله – فمن يعيدها الآن؟ والوقت غير الوقت، لأقِف هنا على قمة (بندورة) منطويا متوجسا من كل شيء، أو إلى اليوم الذي سيأخذني في إغفاءة طويلة وصمت مقيت! مثل رفاقي الذين سبقوني إلى نوم أزلي، لكن الدرب الطويل والحرب مستمرة، وأنا مشطور هنا نصفين، بين الخوف والقلق، وبين الموت المحتوم والأمل المؤجل – أقصد النجاة – وأجرب مقاتلة بطون الموت التي لا تشبع، فإذا نجوت من هذه البطون، فإن روحي ستبقى تتصارع وتتهادى في تعرجات هذه الفوضى، لتبقى حريصة على اجترار ذكريات الحرب... أنينا ووجعا.

أبعد كل هذا تحاولين محو وإزالة الحزن من عينيّ؟ يا عصير الفرح والحب، فبعد سكون مطحنة الحرب، مشواري ما زال طويلا، سأبتدئ على نحو آخر، وربما من تحت الصفر، لأكوّن حياتي كبائع للكتب على قارعة الرصيف، أو أجير في مطعم رخيص، فكيف أرمم أوراما غاصت في روحي؟ إذن من أين ابتدأت رحلتي – معك–؟ وهل ابتدأت وصية المرافئ، يا شريان صوتي المتعطش للحياة، تسكتني لتهمس مرة أخرى:

- دعني آخذكَ من أحزانك، لتضمَ نور حلمي إليك، وتحرق العتمة السوداء الملقاة على جدران روحك النقية، سأعطي وصيتي لجهاتك كلها، فمن هنا تبدأ رحلتي/ب/ معك وإليك، مثل ريح تتحرك صعودا وهبوطا، وافترش بداياتك، فيكون الرحيل.. إليَّ/ أليكِ.

ي- رحيل الاعتراف

دعني أكونُ أنا الشاهدةُ والمتحدّثَةُ لرحلتك /رحلتي/ي/ هذه.. ولتتعانق أسئلتي، وهي تدلني على شرفات قلبك، وأنا انتظر حكايات جدتك عنك، مثل رُقياتٍ تستقر في حلمي إليك، لتغادر سنواتي شرنقة العزلة المتعطشة إلى حلمك البعيد، وأنت تعطيني قصتك الأولى، عند الاعتراف الأول بحبنا.

- كم أنتِ ذكية، يؤطره جمال إلهي... يا زهرة تقودني حيث الأمان... هكذا همستَ في أذنيّ، مَدّدتَ يدكَ لتلامس يديَّ، وأنت تهمس كعادتك في البوح: ما يهرني فيكِ شَغفُكِ اللا محدود بالوصول للغاية التي ترجينها! عندها كانت الولادة، أقصدُ عشقنا الذي لامس السماء مثل أهزوجة–موصلية– تَجمّلت بربيعها المشتاق إلى ضمّي، ولتغمس أنفاسك فيَّ، وأنت تطلب بوجلٍ أن أكون نصفك الجميل، وأن استشعر صمت نبضاتك المخبأة في عينّي –

أليك – وأن أحمل علامات ملامحك نحو مستقبل مزهر، لأراك تلهب خطاك لتجمع رحلاتي/ي/ كلها... تلك اللقاءات التي يباركها (الإمام يحيى أبو القاسم) قدّس الله سرهُ ونحن نستظل ببركاته على شاطئ دجلة وهو يغسل المدينة ويطهرها، فلا نغامر بما يعيق توحدنا، فدفق اعترافك – حبك – جعلني استشف دقات قلبي/ روحي... المتلهفة لأنفاسك، فلماذا لا نعترف بذلك أمام المرايا؟ وهل أخبئ انصهاري، وأقاوم دون دراية، لهفة أناملي وهي تلامس روعة يديك، لتزرع فيَّ حباً، وأنت تروي ثغرا، وترسم عليه جمال الدنيا وانتمائي لكل شيء، لتشعلني قنديلا يتوهج الآن كفراشة تتدفأ على أنغام همساتك:

- يا روعةَ حياتي، فأقفُ هنا فقط، مُعلنةً بأنّ رحلةَ الاعتراف انتهت في قلبي... إلي/ إليك...

د- رحيل التوحد

بسم الله الرحمن الرحيم

"... ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون"

صدق الله العظيم

الروم (21)

أ-رحيل الرحلات

عذرا، إليّاكِ، من يكون المتحدث في هذه الرحلة /أ / أيامي، أرقامي، أمنياتي، أحلامي؟ ألملم رموز مدينتي آشور، الجسر الحديدي العتيق، الغزلاني، وهل ستكفي هذه الشواهد التي أجمعها من مدينتي لتكون شاهدة على رحلة الرحلات /أ /؟ لا أدري! إنها معضلة كبيرة – صدقوني – أن تجعل كل دقائق عمرك مقروءة على أسطر فـ - عذراً – "...أبي/أمي/ أخوتي/ أصدقائي..." لأنني قد لا أستطيع أن أمنحكم دفئاً، وبعد أن استحال هذا الجسد إلى ركام، في فوضى الحرب والألم والحصار ويقين الحب، إنها معادلة صعبة ومتناقضة حقاً..!

أذن لأعترض سيل أفكاري، وكل المسارب التي تتفتح في يقظتي، صحوي، ليلي، نهاري، ماضيّ وحاضري، وسأسن مثل نصل حاد أيامي/ أيامنا.. حبيبتي.. وسأغزل ساعات التوحد ولنبني عش الزوجية، ونُكَّونَ رحلة الرحلات /أ / فكان اسمك عنوانا لرحلاتنا التي أستمد حروفها من تاريخ وعبق مدينتا في وقت لم يكن سهلا أبدًا، فكل شيء يرتفع سعره والثمن عمر سرق من آمال لم تولد بعد، وأحلامنا تشكل سلطانا على توحدنا، فلا بد من ترتيب الحكاية، ولا بد من تناثري هنا.. وهنا.. وهناك أيضاً...! بائع سجائر أو كتب على قارعة الطريق في (رأس شارع النجفي) بعدها أجير

في مطعم! وأن أتناسى الوقت الذي تبعثر من حولي، والعمر الذي ضاع مني في لُجّة الحرب والصراخ، أتخطى معك – إليّاكِ – تلك السنوات العشر، كي ألفظ مرارة فمي، أجمع نقودا لنؤسس بها حياتنا في زمن الحصار اللعين.."

- قتل الله الظلمة، ولعنة على الحصار... هكذا تقول أمي كلما تهّم بإعداد وجبة طعام باردة..!

فانزاحي أيتها الرغبات، وأسبتي أيتها الأحلام، وتعطلي أيتها الأفكار، لتقسو بعدها سحنتي وأنا أنتقل من عمل إلى آخر.

ستعتادين على رؤية الوجوه المتوردة، والبطون المرتفعة – هنا في السوق – رؤوس... ورؤوس... لا تفكر الرؤوس إلا بالنساء، وجمع المال، وعن أفخر الصواني لإشباع وملأ تلك الكروش الكبيرة، ولا يفكر الفقراء إلا برعبهم من تلك الرؤوس، لا قلب للسوق، ولا رحمة؛ لهذا حبيبتي هربت نافرا عند هذه الكوّة التي تنضج أيامي، واقتنعت حينها بأن جميع الأعمال لها (وجه واحد..!).

هنا عند هذه البقعة من الأرض، وأمام – كوّة النار – كانت بدايةُ رحلتنا، عرفتكِ، صارعتُ موج الحصار الذي غير كل شيء، ليهمس ذلك الصوت الجميل بوعي فاضح في ألفته ومحبته:

- إن لكل شيء وقتهُ... لحظتها أدركت المعادلة، إذن رائعتي لنَبنِ آمالاً تهدر بالحب وتمضي وتعود مزهرة، متشحة بألفة ذرات تراب أرضنا الغالية، ولنبدأ رحلة الرحلات /أ / وسيكون شفيعي عندك أنني نزفت حباً وواصلت المشوار بإخلاص ملائكي إلي/ إليك.

إنانا تغادر

ما زالت تستذكر غبار عشقها وحبه غير المعلن وهو يرتعد حتى من مضجعه الذي ملّه، وذاكرته وهي تلح في التذكر، حاول الابتعاد حتى في الهروب من سريره، من حبها الدافئ، وهو يجتاحه كل مساء، ومن أزقة محلته المؤطرة ببراءة طين يغازل قمر الملهوفين، أعني العاشقين، ومن آخر تفاحة كانت ستهديها له ليتنفس سنابل وأزهار تاريخهما معاً، عشقا ممنوعا من البوح مثل حنظل يتجرعه دون أن يخبئ حبه، الآن أفكاره سيف مسلط على وحدته الحرجة وهو لن يبكي ليدرك أن زمن السقوط يساوي زمن القفزة الآن، وأن وثبته ربما تكون قصيرة الأجل! وهو ينحرف نحو

مسعى جديد من قبلة تسرقها عن غفلة من الأهل، لكنها بريئة وغير محرّمة، فتنفلت بعيدا، وستظل شريدة في أثير غير مدرك.

في بيته الضاج بمحبة وألفة، بالتحديد في غرفته المنزوية في الطابق العلوي، ومنذ أن علّمه أبوه معنى الرجولة كان منغرساً في غرفته تلك مثل نقش حاكه ملك من سديم أزلي، تلك التي قضى سنينه وأيامه داخلها يحفر في أخاديد وعيه ومعرفته الشخصية خرائط عديدة عن أناس جالوا في قطارات ليست كالقطارات، تبدو كالأحلام في أرجاء الأرض بحثا عن حب أو شهقة صادمة، وهو الذي لم يغادر حصافته المزروعة في رأسه من تلك الكتب والأحاجي والثوابت المدسوسة من كائنات تبدو أزلية، وربما سرمدية قادمة من بعيد، ربما هنالك أو هنا، تلك الأحاجي التي لم تنشطر إلا على محبة تتنفس هواء مدينته الموصل.. ومعها صبره الثابت.

لم يكن يدري أن مفترق دروبه منشطر ويتشظى مثل قنبرة نكاية به عند هذا الدرب الذي سلكه، وبعد أن عاد خالياً من عاطفة لا روح فيها.

في عزلته جلس يحيك ساعاته بمغزل الذكريات ليصنع من نسيجها قميصاً كبيراً كان يلائمه قبل هذا الوقت، ليتيقن أن النهاية تختلف في تكوينها وبنائها عن

البداية التي عاشها، وأن حياكته وحكايته التي عاينها وأنصهر بها ومعها قبل البدء بمشروعه ذلك قد اختلف عنها الآن، لتلتصق بذكرياته تلك الحكايات التي كانت تنبثق – مثل ينبوع– من فم جدته مذ كان صبياً لتكّون عالمه الخاص.

تلك القصص الطويلة عن عمالقة أبطال، وأحياناً سذّج، ففي بعض الليالي الشتائية الباردة حينما يهرب النوم من عينيه كانت جدته تتعمد أن تسرد له حكايات غريبة تمتزج فيها مشاهد رهيبة عن البطولة والخوف ومقارعة الأهوال، من أجل أن تسكّن من روعه ليستلقي هادئاً في نوم جميل.

في عزلته هذه راح يتابع بحذر شديد انكساراته وخيبتاه الجاثمة على قلبه، ونسي أو تناسى أن هذا الخيال وليد تجارب حقيقية عديدة عن ما كان أو ما سيكون لتشكله، مثل بلورات تعبر عن ما تحمل داخلها صوراً ستنظم إليها صورته يوما ما، لتصبح سجينة في داخلها، كصمت مكانه وهدوء أزقته المميت، ولحظات ساكنة لمحاليل غادرها أهلها، وزاحمت قوة حبه لها، ليصبح كومة يابسة من أعشاب انتزعت من جذورها ورُكنت في بقعة منزوية تعوم ذاكرته وقلبه وفكره المشتت، وفي خضم انصهاراته وأحزانه تلك توجه مثل محارب منكسر إلى

طاولته في ركن غرفته اليمنى، وعند كرسيه الوحيد مثل غريق يقاوم تلاطمات بحر هائج، جلس حزيناً يجمع كل أوراقه وما يثبت شخصيته أمام القانون، ليحرقها دفعة واحدة دون ندم، علّه يشعر بلذة تجاوز اللذات، أو أن يتحول إلى لا وجود! وهو المّحدب مثل سيف مثلوم يقاوم صداً يغطيه كبرقع امرأة شرقية، علّه يرفع أجزاء جسده الذي بدأ يتحول إلى رخام رمادي، أو ربما كموجة هوجاء قلقة أحسّها تنقله وتنتشله من خضم ظلمة حالكة في روحه، ليجد نفسه بعدها واقفاً في متحف منسي لا يدخله أحد!

هكذا بدا له أن يهرب دون مواراة إلى هدأة مريبة، لتتجلى له من جديد (أنانا) ربة الحب والحرب عند بقعة بين النهار والليل دكناء تسبح في انصهارات عشقه المذبوح، وهروبه غير الممكن من هواجس ذكرياته، لتجتاح ضلوعه وقلبه مترنمة نشيدها في غرور لا يقهر وهي تقص عليه بعد كل هذا الوقت آخر لعناتها عن رجل تحول إلى رخام.

قالوا في القصص

يعد القاص ناظم علاوي واحداً من كتّاب القصة المجتهدين في مدينة الموصل ، وما قدمه من أعمال قصصية حتى الآن يتيح للقارئ / الناقد التعرف بشكل طيب إلى خصوصية الأداء القصصي عند القاص علاوي.

بدءاً يميل القاص إلى الأسلوب الواقعي في تصوير هموم ومكابدات الإنسان العراقي ، وعلى نحو خاص الإنسان في مدينته (الموصل) ، لذلك نجد انشداد القاص إلى المكان بكل ما يمتلك من تاريخ ومكانة وخصوصية محلية على نحو لافت لعين القراءة.ولعل هذه الملاحظات تنطبق إلى حد بعيد على مجموعته الجديدة ((لن تهدأ)) التي ضمت (8) قصص.

بدءاً تطالعنا بنية العنوان (لن تهدأ) بحركية – إيقاعية لافتة على الرغبة بتقويض الساكن / السائد / الصامت ، مسبوقة بأسلوب النفي (لن) دال على استمرارية فعل الاكتساح والتغيير ، ترى هل تنبأ القاص علاوي بالثورة الشاملة التي تجتاح معظم دول المنطقة العربية ؟! هل تنبأ بالطوفان الذي سيغير العالم العربي ، ويفتح أمامه آفاقاً جديدة ؟!

تشتغل (لن تهدأ) علاوي على ثنائية الداخلي / الذاتي والخارجي / الموضوعي ، فالتغيير يشمل الإنسان من الداخل ، ويشمل المكان والزمان ، بمعنى آخر انه يعني حياة جديدة لإنسان بدأ يولد من رحم هذا التغيير. ثمة ثنائيات عديدة في هذه المجموعة لكن أبرزها هي ثنائية (الحب والحرب) التي شغلت أقلام المبدعين العراقيين ، وحرّكت هواجسهم ، ووضعتهم في مواجهة أقدارهم ومصائرهم ، فمعظم نصوص المجموعة كتبت في زمن الحرب ، وعزفت على أوتار حب المرأة والوطن والحياة.

د. فيصل القصيري

يشتغل القاص ناظم علاوي في مجموعته (لن تهدأ) على أنواع من المكان (المكان المغلق) الذي يتمثل بالمقهى والبيت، و(المكان المفتوح). والزمن عند قصص المجموعة تنقسم إلى: زمن واقعي وزمن نفسي.

أما في مفهوم (الفضاء القصصي) عاين القاص ناظم علاوي في مجموعته (لن تهدأ) قصصه بوصفها نصوصاً سردية تنبثق من أفكار عميقة ورؤية خاصة تتشكل ضمن بنية موضوعية وفنية ذات امتدادات شديدة التنوع والاختلاف يجسدها حرص (القاص علاوي) على إظهارها

بالصورة المثلى والتشكيل الفني الأفضل ، بأسلوب سردي خاص يعتمد البساطة بالتعبير والعناية باللفظة مع تقديم المعنى الابهاري للنص وتوسع في بيان وعي وثقافة ناظم علاوي في مجال السرد القصصي عامة والفضاء القصص بخاصة.

كمال عبد الرحمن

يحقق السرد مديات مختلفة في قصة(يقظة.. وبعض حلم) افتتاحية السرد للراوي العليم تقدم معلومة عن بطل القصة./ اديب معروف/ من رواد مقهى أبي ايلاف في حي الجامعة/ عمره ستون عاما/ له نتاجات وتجارب ادبية معروفة/ اتخذ قراره الخاص بالتوقف عن الكتابة جراء هبوط المستوى الفني/ الادبي الذي يلاحظه في النتاج الادبي الذي تنشره الصحف الادبية.

السرد بعد ذلك يتحول الى الشخصية ذاتها/ الاديب/ يقذف الجريدة بعد قراءته "للحب طعم الاحتراق" لحظة السرد هذه يقطعها الراوي العليم/ السرد من خلال موضوعة الرسالة القديمة المتهرئة التي قذفتها امراة عابرة تمر بالشارع بحضنه وهو يجلس على الرصيف في مقهى ابي ايلاف.

البنية الفنية للقصة تنمو عبر هذا الثلاثي الذي اجاد طرحه ناظم علاوي واقصد به/ الراوي/ الاديب/ الرسالة/ فيكشف من خلالها قصة حب قديمة من طرف واحد بين المراة صاحبة الرسالة والاديب منذ ايام الشباب.. بدء تجاربه الاولى في الكتابة والنشر في شاهد مكان جميل/ مقهى ابي ايلاف/.. تفاصيل الرسالة ومحتوياتها تؤشر تلك العلاقة من جانب المراة وغيابها من جانب الرجل/ الاديب.

ان الاثر الذي تركته الايام على الرسالة القديمة غيب بعض كلماتها وسطورها... وفي ثنايا هذه المفاجاة وعودة الاديب الى الجلوس في المقهى مع صديقه الراوي/ السارد يبدو الحدث... الرسالة/ المرأة/ المقهى/ أشبه بحلم يتداخل في بنية القصة الفنية في يقظة واقعية هي ميزة فنية تحسب للقاص ناظم علاوي في تجاوزه/ لـ "احادية البطل"/ و"احادية الصوت"/عبر وجهة النظر السردية التي يُروي من خلالها الحدث وبمؤشر فني يعتمد تعددية المنظور والصوت في مستويين زمنيين هما/ الماضي/ الحاضر/ يتداخلان في لحظة آنية واحدة مرهفة مما يعطي البنية الفنية تماسكا داخليا ينهض على منطق اشاري فني يتابع الحدث/ الشخصية ويخلق ذاكرة للنص يتابعها المتلقي/ المثقف/ الواعي/ بشكل خاص وهو يكشف اعتماد القاص ناظم علاوي المنطلق الجدلي للحدث/ الزمان/ المكان/ الشخوص/

وخلق علاقة ثنائية جديدة تنبثق من رحم العلاقة الاحادية القديمة في حالة انفتاح على زمن جديد.

سليمان البكري

مجلة الطليعة الادبية/ السنة الثانية

العدد الرابع- 2000/ صفحة 110

قصة (الوشم) توكد ان الوشم هنا هو السمة أو العلاقة، فهو هنا سمة تحكي حكاية ذلك الانسان، وتتحقق في القصة قضية العلامة عندما يعود الاسير إلى مكان انطلاقه الأولى في حالة بحث عائلته فلا يجدها ومنٍ ثم يدخل إلى المقهى، يدخل متباطئا يحاول الإكتشاف بذاته اكتشاف الأمكنة والتي كانت تلح في ذاكرته وتتداخل لتصل من خلال الماضي الى حاضره، عاد الأسير ليلتقي بأخيه يعمل في مقهى كان يعرفه جيدا قبل اكثر من عشر سنوات يوجد الوشم وهو حرف (ع) في يد الشاب أدرك أنه اخوه.

الى هنا وتكزن القصة واحدة من قصص العراق والعودة ومن ثم التلاقي ولكن الاخ الاسير الموشوم يلملم ظله المفترش عرصة المقهى كما يعبر القاص ويمضي بعيدا لا يدري الى أين.

هذا التداخل بين العلامة الظاهرة وبين وشم الروح يؤكد على أن القاص حضر كثير لكي يلتقي يمأساة الإنسان

التي فرضت عليه من قبل قوى أكبر منه، فهو مقيد دائما بما هو وشم يضعه في أفق الزؤية أو في مجاهل متممات الواقع.

خضير عبد الامير

الطليعة الادبية- العدد الثاني

السنة الثانية-2002. صفحة 107

سبق لي قراءة قصص لهذا القاص واشرت لخصوصية القاص ناظم علاوي في كتابة نص قصصي مبدع.

البنية الفنية لقصة _ إلياك_ اعتمدت اربعة اقسام جعل القاص من مفردة "رحيل" قاسما مشتركا بين الاقسام الأتي:- "رحيل اللقاء" ، "رحيل الإعتراف" ، "رحيل التوحد" ، "رحيل الرحلات"، هذه البنائية المشتركة في العناوين الأربعة تكشف عن تواصل بين بطلي القصة/ المرأة/ الرجل/ في مفردات حياته الصعبة ومخاطر الحرب التي عاشها والإنكسارات التي عانى منها في احتراق سنوات عمره عاملا في "فرن اللحم بعجين" ورحيلا طويلا الى جبهات الحرب وكل الابواب مغلقة في وجهه.

في الجانب الآخر تكون المراة المحبة العاشقة في انتظاره "تضمد جراح حزنه لان العشق سر يقظتها التي

اشتعلت صحوا فيها وفيه" ص40/ المجلة. المرأة تنتظر اوبته ليرتب انوثتها/ حياتها/ لانها احبته. قلق الرجل من عودته بعد انتهاء الحرب يسرده ذاتيا خطاب موجع للبطل:- "سابتدىء من تحت الصفر لاكون حياتي كبائع للكتب على الرصيف او اجير في مطعم رخيص" ص41/ المجلة. يوجعه هذا الوضع لكن المراة العاشقة تداوي جراحه/ صعودا/ هبوطا/ تفترش آلامه فيرحلان معا باتجاه المستقبل.

في "رحيل الإعتراف" بوح بمفردات عاطفية بين العاشقين/ خطاب حواري بينهما حتى الوصول الى نهاية "الرحلة" في الإعتراف وقد انتهت الى القلب... قلبه/ قلبها في "رحيل التوحد" يستعين/ يلجأ القاص لنص قرآني كريم في مسار بنية قصته يوظفه في تنوع "رحيل" نصه معمقا الاثر الروحي/ المقدس بين الرجل والمراة في الحب الذي يتوج بالزواج –وهذه وجهة نظر القاص- فيورد الآية اكريمة:- " ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم ؟أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" صدق الله العظيم/ سورة الروم 21/.

في "رحيل الرحلات" ختام بنية النص الفنية يكشف الخطاب فيها طبيعة ساعات التوحد بين العاشق وذاته يتجاوز فيها –فوض الحرب والالم والحصار بيقين الحب- ص41/ المجلة، ليبدأ بعدها ما اسماه "رحيل الرحلات"

باتجاه افق اوسع/ الزواج ولايهم اذا اشتغل بائع سكائر او كتب على قارعة الطريق او اجير في مطعم متجاوزا زمن الحصار الكارثي اللعين ملخصا في السطور الاخيرة للنص محصلة ما اراد قوله في القصة:- /بناء آمال انسانية يحركها الحب/ تورد وتزهر في ظلال الوطن/ ويكون المشوار باخلاص ملائكي التعامل.

خطاب سردي متالق في عنفوان قصة حب بين عاشقين وفق ناظم علاوي بسرده في آليات/ مكانية/ جغرافية/ موصلية/ وفي حوارات مختلفة المستويات/ ذاتية/ مونولوجية/ حينا، تواصلية/ سردية/ شعرية/ حينا آخر بينهما. خطاب السرد في اقسامه الاربعة اقام نسيج وحدته الفنية في لغة شعرية تعاملت مع عمق علاقة الحب بين الرجل والمراة وكشفت عن موهبة ناظم علاوي

سليمان البكري
مجلة الطليعة الأدبية -العدد الثاني-
لسنة الثالثة – 2001 صفحة 106.

هذه محاولة مقصودة لقراءة قصص (لن تهدأ) للقاص ناظم علاوي، بدافع وغاية لكشف عوالم هذا القاص ومتوالياته السردية، وقرأت له مؤخرا قصة

(الوشم) المنشورة في مجلة (الطليعة الأدبية) بعددها الأول من هذه السنة(2002) قوجدت فيها تعبيرات مكثفة تتماوج في باطنيتها معالجات ذكية لتشخيصات لم تخرج عن اطارها الواقعي، لقد اختار القاص شخوصه التي تصنع الحدث بلا تكلف وبحيوية تغذيها الدهشة؛ وبدءا من عنوان القصة (الوشم) يسلط القاص أضواءه عل وجه أسير عراقي عاد من الأسر بعد أن ذاق مرارة وعذاب عشر سنوات في زنزانات الظلم والظلام، يعود متلهفا ((...مثل رغبة جامحة بالإكتشاف نضجَت في زمن تَسرَّب من بين أصابعه قبل أوانه، كان ظله الداخل قبله للمقهى...)) القصة. يعود ليدخل مدينته ويتجه نحو المقهى التي كان يرتادها قبل عشر سنوات يتأمل البناء الداخبي للمقهى وما تغير في ترتيبها ((...تَنفسَ عبق سنينه المؤودة والماضية في زحمة الأثير المنفلت عند اضطرابات عينيه الدامعتين وفكرهُ المشتت، وهو يبصر الحرف في مكانه يقاوم السنين العجاف. حدّق ملياً ليرى في يده اليمنى عند أعلى إبهامه وشما للحرف نفسه...)) القصة.

وحتى المرأة التي تحمل على كتفها صبية صغيرة كان الوشم على يدها ويد صغيرتها التي تدلت على كتف أمها، إنه يرى هذا الوشم على كل كف، حتى على كف الطفل الذي يبيع السجاير عند تقاطع الإشارات الضوئية، يبصر

على كفه الوشم(ع) بعد أن فارق الحياة! إن هذا الوشم له دلالة باطنية تنبعث منها عدة تأويلات (تراجيدية) وربما انعكاسا لحنينه للوطن (عراق) وابناء وطنه الموشومين بهذا الحرف (ع) وربما يكون هذا الوشم هو ثيمة القصة التي تعمدها القاص ناظم علاوي في اختياره لتتماهى خلف ظلال التأويلات.

وقد وفق القاص في بناء النص واختياراته لشعرية السرد وتوضيفها بدقة واشباعها بالحيوية من المعتزل الاعمق للروح التي تتمتع بالدفق العاطفي.

حمزة حسان الأعرجي
جريدة العراق لسنة 2002

المحتويات

الإهداء..... 5
الوشم..... 7
رمو..... 19
العودة .... وفصل اللقاء..... 33
دفء..... الثلوج..... 41
ريح لن تهدأ..... 51
يقظة ..وبعض حلم..... 61
إليَّاك..... 71
أنانا تغادر..... 81

لن تهدأ

ما يزال زمن الحرب باقيا
لا نعرف سوى هذه الساعة
التي ماتت أرقامها وباتت
ملتصقة ببعضها تشبه اللا وقت
لن تهدأ ....
أستشف أنها كانت حياتنا
ننتظر سعادة مفاجئة
كي نستلقي في عشب الحلم
هكذا بقينا نحمل الشوق
الى هناك
لن تهدأ ...
وأقدامنا مغروسة في قمة الخراب
وأسراج أمنياتنا
صهيل خيول ميتة
لن تهدأ ...
الريح ... الآلام ...
المطر ... النسيان ...
البكاء على عتبة الفرح المؤجل
حين تتصفح ... لن تهدأ ...
ستشم رائحة فحم الكلمات
التي احترقت
ولن تنطفىء نارها بعد .

بيـا ت مر عي

دار ماشكي للطباعة والنشر والتوزيع
العراق - الموصل
ص. ب. 11019
المجموعة الثقافية
07701664335
mashky2019@gmail.com